مِنْ أسْرار الجَمْع
الجمالية

بَيْنَ النَّفْعِ وَالضُّرّ

في

متشابه ألفاظ القرآن الكريم

دكتور / محمّد علي أبو زيد

(١٩٩١م)

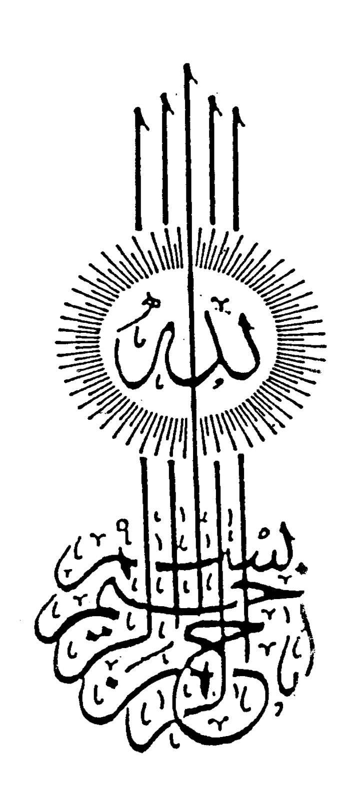
١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م



بسم الله الرحمن الرحيم

وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

لقمان آية (٢٧)


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

الحمد لله الهادي إلى سواء السبيل ، المنزل القرآن الكريم إعجازًا لكل زمن وجيل ، والصلاة والسلام على خير من أبان عن الله مراده ، سيدنا محمد وعلى أهل بيته الشريف ، وصحبه الأخيار ، وتابعيه الأبرار ، والعلماء العاملين ممن عملوا على مقتضيات التدبر فأبقوا لنا هذا الميراث الشامخ والذي لايزال شاهد عدل على خلوص النية ، وصدق العزم ، وسلامة المقصد ، على الزمان وإلى يوم الدين .

وبعد ...

فإن من المعلوم والثابت لدى كل ذي عقل ودين أن القرآن الكريم قد ثبت إعجازه منذ نزل في عهد البعثة ، ولايزال هذا شأنه ، وسيظل هذا حاله إلى البعث على حسب ما شاء تعالى وقدر ، ومن الثابت والمعلوم كذلك أن وجوه الإعجاز كثيرة ومتعددة ومختلفة وإن بقى الإعجاز البياني الوجه ، إذ به الإبانة عن غيره والتعبير عما عداه ، فهو الواسطة والمصور لسائر ما يمكن عده في هذا الباب وإنما هذه الوسيلة والواسطة مقصودة في ذاتها ومراده ، فليس القرآن الكريم كتاب عقائد وتشريع وأحكام فقط ، ولا هو كتاب قصص وأخبار ومواعظ وأخلاق فحسب وإنما هو من فوق كل هذا كتاب بيان معجز وأمر التحدي به قائم ودائم والإعجاز به واقع ومستمر ومقصود .

ثم إن من المسلم به والمقرر عند فقهاء البيان أن جوانب الإعجاز البياني عديدة ، حتى لكأنها لاتكاد تقع تحت حصر أو استقراء ، ولا ريب في أن لكل جانب ما وراءه من أسرار ودقائق ينبيء عن شيء منها ، أو يكشف عن بعضها

إعمال الفكر وتبصر متصرفات الكلمات واستشراف ما توحي به من إشارات ورموز ، والتأمل الواعي لأحوال السياقات ، وطرق التعبير ، وخصائص ودلالات التراكيب ، وما جرى عليه عرف الاستعمال القرآني .

ومن أبرز ما تتمثل فيه هذه الأمور وأكثر مما هو على مثالها ما يعرف في علوم القرآن الكريم ولدى أصحاب الدراسات القرآنية بمتشابه القرآن الكريم ، وما نعنيه بالذات ما يطلق عليه التشابه اللفظي ، ومنه ما تراه حين يعمد النظم الكريم إلى تركيب بذاته وعلى نحو خاص في الصياغة وطريقة البناء والتركيب في موضع ثم تجد التركيب ذاته وقد ورد استعماله في مواضع أخرى وعلى أنحاء مختلفة كالجمع بين السماء والأرض ، المشرق والمغرب ، واليمين والشمال ونحو ذلك مما يدخل في باب المطابقة .

وفي أثناء الإعداد لبحث يدرس بلاغة الطباق والمقابلة عرضت لشواهد عديده من هذا الباب ، ومنها كلمتا النفع والضر ، غير أنني رأيت هذين اللفظين يردان في النظم القرآني على أحوال وكيفيات تخرج بهما عما يتسع المجال لذكره هناك فضلاً عن كونها إلى باب المتشابه القرآني أقرب فعزمت على أن أفردهما بحديث خاص ، وكان العنوان المقترح أول الأمر : من أسرار بلاغة المطابقة بين النفع والضر في متشابه القرآن الكريم ، ومضيت على ذلك حينًا ، إلى أن وقفت على موقع البقرة وفيه ما يخرج عن مفهوم الطباق وحده ، فقد ورد فيه فعل الضر أولاً مثبتًا وعطف عليه فعل النفع منفيًا في قوله تعالى : ﴿ **ويتعلمون ما يضرهم ولاينفعهم** ﴾ [1] فآثرت ما هداني الله إليه فاستبدلت كلمة الجمع بالطباق ،

ولكن لما كان عرف البيان القرآني يجرى في احيان كثيرة على أيثار مقابلة لفظ الضر أو النفع بألفاظ أخرى ، والتعبير عنهما معًا بألفاظ أخرى كذلك في احيان أكثر أثرت هذه الدراسة تتميمًا للغرض وتعميمًا للفائدة المرجوة الا يقتصر

(١) البقرة آية [١٠٢] .

الحديث علي ما ورد فيه الجمع بين صريح مادة الضر والنفع ، وإنما يعم الكلام فيتناول ما جرى فيه التعبير بغير لفظي الضر والنفع في احد الطرفين كمقابلة الضر أو الضراء بنحو الرحمة والنعمة أو السراء او الأمن ونحو ذلك ، و مقابلة النفع أو المنافع بنحو الأثم وكذلك الجمع بين أمثال الحسنة والسيئة والنذارة والبشارة والخوف والطمع والرغبة والرهبه ، والمغفرة والعذاب والخوف ونظير هذا مما يكثر دورانه في الكتاب العزيز .

وعلى ذلك فقد مضت هذه الدراسة في فصلها الأول تبحث في المواضع التي جمع فيها بين صريح مادتي الضر والنفع .

ثم كان الفصل الثاني خاصًا بما قوبل فيه مادة الضر والنفع بألفاظ أخرى واما الفصل الثالث والأخير فكان للحديث عن تلك المواضع التي آثر النظم الحكيم معها التعبير بما فيه نفع وضر بألفاظ أخرى .

والحق أن مضى الدراسة على هذا النحو مما كنت مشغولابه اول الامروعلى شئ من التردد إلى أن حدثني من اثق به في هذا الشأن حيث استفهمني عن تناول البحث لما جرى التعبير فيه بغير صريح لفظي الضر والنفع .

وبعد مضى امد وقراءة ومراجعة آثرت هذا الاتجاه فإن الذي لا شك فيه أن من وراء خصوص كل تعبير في سياقه مغزى ، فإيثار التعبير بالأثم في مقابلة النفع مثلا او مقابلة الضراء بالسراء او الضر بالنعمة من وراءه زيادة فائدة لا تكون بغير ما ورد التركيب عليه،كما أن ايثار التعبير عما فيه معنى الضر والنفع بألفاظ أخرى كالتعبير بالخوف والطمع والرغبة والرهبة دال على خصوص معنى ومغزى يفوت مع التعبير بغيرهما .

وعلى ذلك فقد مضت الدراسة هنا على طريق المنهج التحليلي الباحث عما

عساه يكون وراء خصوص الكلمة وهيئة بنائها وما صاحب ذلك في سياقها من كيفيات واحوال وسائر ما يعين على استشراف خصوص المعنى بما يلتقي والغرض المراد مع كل سياق ، وذلك بالطبع على مقدار ما تتسع عقولنا لإدراكه وبمقدار ما يوفق إليه تعالى وييسر الطريق إليه«اذ أن من المسلم به لدى كل ذي لب ودين أن امثال هذه البحوث التي تتصل مباشرة بالكتاب العزيز لا تقوم ولا تكون الامع توفيق الله تعالى وتيسيره أسبابه

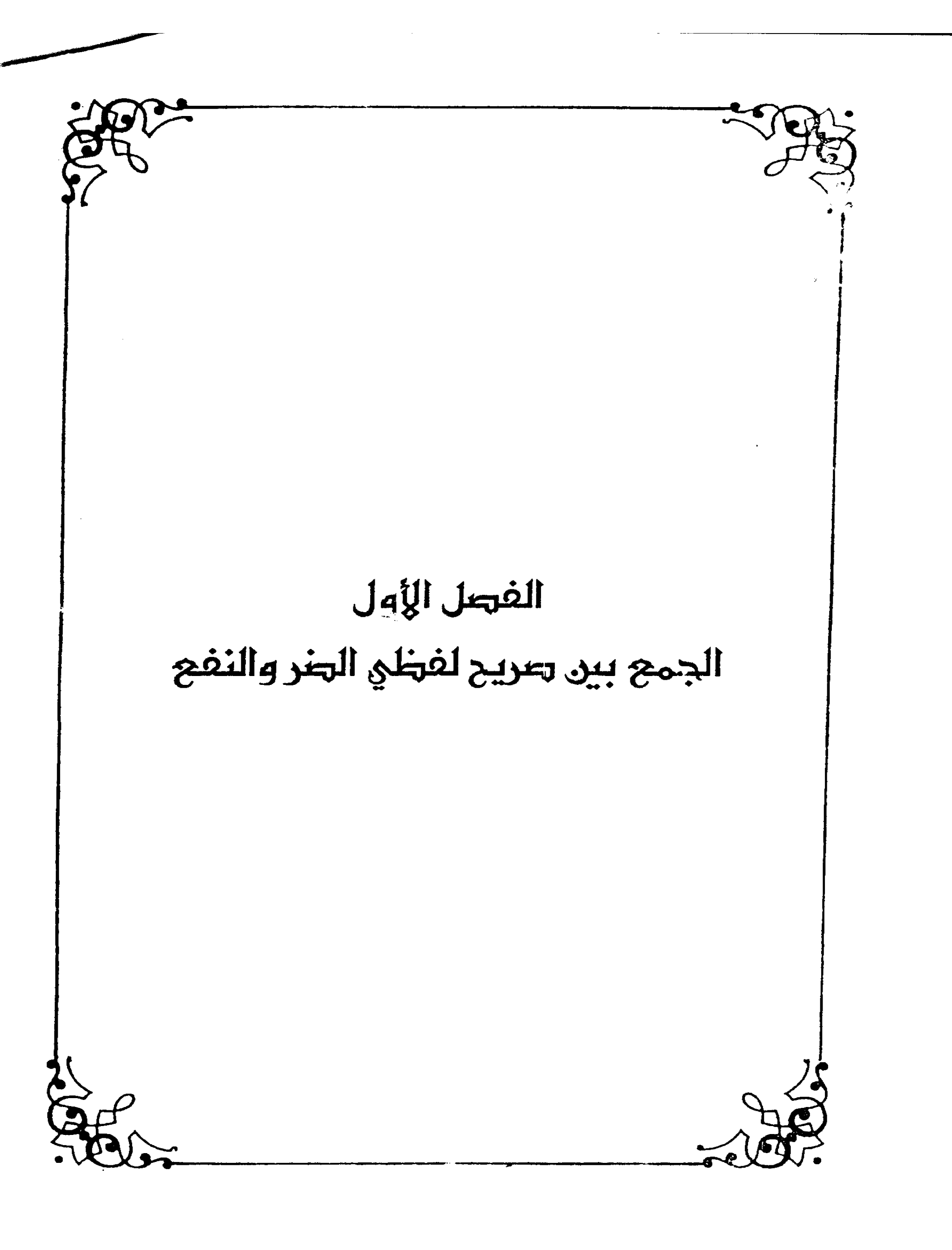
وارجو منه تعالى مخلصا أن يكون لهذه الدراسة نصيب من التوفيق وتيسيراسبابه

والله وحده المستعان والهادي إلى سواء السبيل

د/ محمد علي ابو زيد

اكتوبر ١٩٩١





الفصل الأول

الجمع بين صريح لفظي الضر والنفع

النفع والضر

وهاتان الكلمتان النفع والضر واردتان في سياقات تعبر عن غاية جليلة ، ومقصد شريف ، فإن أكثرها متصل بأمر يعد أصل الدين كله ، وسنام العقيدة ، فإن إثبات الوحدانية لله تعالى ومقتضياتها من امتلاك الأمر كله غرض أصيل من وراء ما عرضت إليه هذه السياقات من سلب امتلاك شيء من أمر النفع والضر عن تلك الآلهة المزعومة ، سواء كانت متمثلة فيما اتخذوه من وثن وحجر وشجر ، ومن ما ادعوه على نبي وبشر من نحو ما افتروه على عيسى بن مريم عليهما السلام ، أو فيما توهموه امعانًا في اللجاج أو لغرض إيقاعه ﷺ في الحرج حين سألوه عما لايدخل في طوقه من علم ذلك الغيب الذي لايدخل في حدود ما أعلمه الله إياه من أمر الغيوب .

فسياقات هذين اللفظين ترمي من وراء هذا كله إلى تأكيد أمر وحدانيته تعالى وإبراز سلطان الألوهية ودواعيها ، وأن مقاليد الأمور كلها بيده سبحانه ، فهو النافع والضار في الحقيقة يثبت هذا ويأكد على القدر الذي أكد به أمر سلب امتلاك غيره تعالى أمر شيء من قبيل النفع والضر ، كما أن في هذه السياقات ما هو دليل صدق على صدق التبليغ وبرهان على كمال أمانته ﷺ حيث بلغ ما أمر حتى ولو كان ذلك يتصل بصريح سلب امتلاكه ﷺ شيئًا من أمر النفع والضر ولو كان ذلك فيما يتصل بذاته الشريفة عليه الصلاة والسلام بما سيوضحه ذكر المواقع ومتابعة الخصائص المصاحبة لكل موقع .

ورد في القرآن الكريم الجمع بين النفع والضر في مواضع أحصيتها في سبعة عشر موضعًا على صيغة المصدر أو المضارع ، ولقد لحظ تقديم الضر على النفع في تسعة مواضع مصدرًا أو مضارعًا على حين قدم النفع في ثمانية مصدرًا أو مضارعًا كذلك .

ولا ريب في أن من وراء تقديم ما قدم وتأخير ما أخر وإيثار طريق التعبير بالمصدر أو المضارع مغزى وغرض ينبغي السؤال عنه والبحث فيه .

فإذا كان من الميسور فيما يجري عليه عرف الاستعمال لدى الكتاب والباحثين أو مما يصدر في كتابات البشر وما ينطقون به على العموم أن يأتي لفظ النفع مع لفظ الضر أو نظير ذلك ما يراد الجمع بينهما لتحصيل الغرض المفاد بالمطابقة بتقديم أي من اللفظين وتأخير الآخر دون ما قصد أو مجيء اللفظين على صيغة المصدر أو المضارع دون ما غرض إذ قد يقع منهم ذلك عفو الخاطر أو غفلة عما وراء هذا الاستعمال أو ذاك ، لكن الأمر بالنسبة للنظم القرآني مختلف قطعًا .



المبحث الأول

تقديم الضر على النفع

ورد تقديم الضر على النفع في تسعة مواضع منها ستة مواضع على صيغة المصدر :

موقع المائدة ، قوله تعالى : ﴿ **قل أتعبدون من دون الله ما لايملك لكم ضرًا ولا نفعًا** ﴾ (1) .

وفي يونس ، قوله تعالى : ﴿ **قل لا أملك لنفسي ضرًا ولا نفعًا إلا ما شاء الله** ﴾ (2) .

وفي طه ، قوله تعالى : ﴿ **أفلا ترون ألا يرجع إليهم قولاً ولايملك لهم ضرًا ولا نفعًا** ﴾ (3) .

وفي الحج ، قوله تعالى : ﴿ **يدعوا لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير** ﴾ (4) .

وفي الفرقان ، قوله تعالى : ﴿ **ولايملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا** ﴾ (5) .

وفي الفتح ، قوله تعالى : ﴿ **قل فمن يملك لكم من الله شيئًا إن أراد بكم ضرًا أو أراد بكم نفعًا** ﴾ (6) .

ومنها ثلاثة على صيغة المضارع

في البقرة ، قوله تعالى : ﴿ **ويتعلمون ما يضرهم ولاينفعهم** ﴾ (7) .

---

(1) المائدة آية [٧٦] .
(2) يونس آية [٤٩] .
(3) طه آية [٨٥] .
(4) الحج آية [١٣] .
(5) الفرقان آية [٣] .
(6) الفتح آية [١١] .
(7) البقرة آية [١٠٢] .

وفي يونس ، قوله تعالى : ﴿ **ويعبدون من دون الله ما لايضرهم ولاينفعهم** ﴾ [1] .

وفي الحج ، قوله تعالى : ﴿ **يدعوا من دون الله ما لايضره وما لاينفعه** ﴾ [2] .

والتعليل لتقديم الضر على النفع على ما يذكر الكرماني ، لأن العابدين يعبدون الله خوفًا من عقابه أولاً ، طلبا في ثوابه ثانيًا ، وعلى هذا دلت الدلائل في فطرة البدائيين وفي وجدان الموحدين ، وقد سجل الله تعالى هذه الفطرة البشرية في قوله تعالى : ﴿ **يدعون ربهم خوفًا وطمعًا** ﴾ . أما قوله تعالى : ﴿ **يدعوننا رغبًا ورهبًا** ﴾ فقد جاء معبرًا عن نوع راق ومتطور من الفطرة ألف العبادة حتى تحولت إلى معرفة وحب لله ورسوله .

هذا إيضاح ما يذكره الكرماني تعليلاً لتقديم الضر وهو بلا شك تعليل سائغ ومقبول من حيث هو ، غير أنه لايحول بيننا وبين التماس خصوصيات مع كل سياق على نحو ما ذكر هو وغيره فيما يتعلق بتقديم النفع إذا مواضع الاستعمال في الحالين لايختلفان من حيث القلة والكثرة سوى موضع واحد فاق به ورود الضر مقدمًا وليس هذا فيما اعتقد مسوغًا لجعل تقديم الضر الأصل الذي جرى عليه عرف الاستعمال القرآني ومن ثم عد ما ورد على خلاف ذلك وتقديم النفع على الضر خلاف الأصل .

ومهما يكن من أمر فالمعول عليه دائمًا وكما نحرص على تأكيده اعتماد أمر السياق وما صاحب النظم الكريم في كل موقع من خصوصيات ، وهذا ما أرجوا أن يكشف عنه تفصيل المواقع .

---

(1) يونس آية [18] . (2) الحج آية [12] .

سبقت الإشارة إلى أن لفظ الضر قد ورد مقدمًا على لفظ النفع بصيغة المصدر في ستة مواضع :

الموضع الأول :

وهو قوله تعالى : **﴿ قل أتعبدون من دون الله ما لايملك لكم ضرًا ولا نفعًا والله هو السميع العليم ﴾** (١) .

فالطباق الحاصل في الآية الكريمة بالجمع بين الضر والنفع وارد في سياق تبكيت هذا الفريق من أهل الكتاب ممن اتخذوا المسيح وأمه الصديقة عليهما السلام آلهين من دون الله ، فالمقصود تنبيه أمثال هؤلاء إلى خطأ وفساد أمر ما يعتقدون ، فإن ما يعبدون بمعزل عن الحاق ضرر بأحد أو جلب نفع لأحد أصلاً ، والشأن في العبادة الحقة أن المعبود بحق يملك من أمر عابديه ما فيه ضرهم فيحذرونه خشية عقابه وما ينفعهم فيتسابقون في عبادته رغبة في ثوابه ، وعيسى وأمه عليهما السلام لايملكان شيئًا من هذين ، فهما لايخرجان عن كونهما بشرين يجري عليهما معتاد حياة البشر ومعايشة وليس المسيح عليه السلام سوى رسول يمضي على مثل الرسل الماضيين فهو وهم عليهم جميعًا السلام في هذا الأمر سواء ، فليس له ما يمتاز به عليهم بما يخرجه عن كونه بشرًا وعبدًا من عباد الله حتى وإن كان في شأن ولادته ونهايته على الأرض بين المعاصرين له ما يخرج عن متعارف البشر والأحياء ، فإن من وراء ذلك حكمة وغاية من قبل الحكيم العليم الذي أراد سبحانه له أن يكون الشأن فيه على نحو ما كان ، كما شاءت ارادته سبحانه أن يكون غيره من الخلق على أنحاء أخرى مغايرة ومختلفة ليتحقق بكل هذا بليغ قدرته تعالى وإيرادته سبحانه .

وتقديم الضرر على النفع لأن التحرز عنه أهم من تحري النفع وإيراد

---

(١) المائدة آية [٧٦] .

عيسى عليه السلام بلفظ ما الموصولة دون من لتحقيق ما و المراد من كونه بمعزل عن الألوهية رأساً ببيان انتظامه عليه السلام في سلك الأشياء التي لا قدرة لها على شيء أصلاً ، وهو عليه السلام وإن كان يملك ذلك بتمليكه تعالى إياه لكنه لايملكه من ذاته ولايملك مثل ما يضر به الله تعالى من البلايا والمصائب في الدنيا ولا العقاب في الآخرة ، ولا ما ينفع به من الصحة والمال والولد في الدنيا ، والثواب والنعيم في الآخرة ، هذا ما ذكره أبو السعود بشيء من الإيضاح [1] .

وقد يكون في الغرض قصد التعميم بحيث يتناول التهكم والإلتزام كل ما جعلوه شريكاً فيدخل في هذا أمثال مشركي مكة وعبدة الأوثان وإن كان صريح السياق والخطاب مع أهل الكتاب ممن ادعوا على المسيح ما لايتصور صدوره عنه .

كما أن في ذكر كل من النفع والضر على صيغة المصدر منكراً ما يفيد نفي إمكان حصول شيء مما هو نفع أو ضر أصلاً .

وفي إيراد لفظ (من دون الله) مع تقديمه على الموصول دلالة على المبالغة في تصوير فساد معتقدهم حتى لكأنهم قد انصرفوا عن رعاية جانب الله أصلاً مع أنهم مقرون به تعالى لكن مع الإشراك به والقول بالتثليث ، وفي ذكر (لكم) ما يشير إلى تسفيه عقولهم التي سوغت لهم هذه العبادة الفاسدة إذ ما القيمة وما الثمرة المرجوه منها وما الغاية التي سيصلون إليها ؟ الجواب عن كل هذا على وجه اليقين : لا قيمة ولا ثمره ولا فائدة تحصل فيبتغى ، كما لا ضرر يخشى فيتقى ، ولذا ختمت الآية الكريمة بقوله تعالى ﴿ **والله هو السميع العليم** ﴾ لتاكيد معنى التبكيت والإلزام الحاصل بالاستفهام المصدر به النظم الكريم ، فكأن المعنى : اتشركون بالله تعالى ما لايقدر على شيء من ضركم ونفعكم مع أن الله تعالى هو المختص بالإحاطة التامة بجميع المسموعات والمعلومات التي من جملتها ما أنتم عليه من الأقوال الباطلة والعقائد الزائغة وبالقدرة الباهرة على جميع المقدورات التي منها مضاركم ومنافعكم في الدنيا والآخرة .

---

(١) تفسير أبي السعود : جـ ٣ ، ص ٦٨ .

الموضع الثاني :

وهو الوارد في سياق الرد على إحدى الشبه الباطلة التي كثيراً ما جادل بها المعاندون قصداً إلى إبطال النبوة ، فكلما هددهم رسول الله ﷺ وتوعدهم بحلول العذاب بهم ، ومر زمان ولم يظهر ذلك العذاب ، قالوا متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ، واحتجوا بعدم نزوله على القدح في صدق نبوته عليه الصلاة والسلام ، فكان أن جاء الرد والجواب بقوله سبحانه وتعالى ﴿ **قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعًا إلا ما شاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستئخرون ساعة ولايستقدمون** ﴾ (١) ، أي : لا أستطيع شيئًا من أمر الضر والنفع فأجيبكم إلى ما توعدتم به فليس ذلك من شئوني ، وإنما هو يرد أمره إلى الله تعالى إذ هو وحده القادرعلى انجازه وقت ما يشاء على وفق ما تقتضيه حكمته وإرادته تعالى .

وتقديم الضر على النفع هنا لأنه أنسب بالغرض لأن هؤلاء المجادلين أظهروا استبطاء ما فيه مضرتهم وهو الوعيد ، فكان ذكر لفظ الضر أولاً أبلغ من حيث أن مساق النظم لإظهار العجز عنه ، وأما ما وقع في الأعراف من تقديم النفع على الضر فلأن المقام لهذا هناك على ما سيتضح في موضعه ، وأما هنا فإنها في سياق الرد على الجدال باستنزال عذاب متوعد به ، وقبلها ﴿ **وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون** ﴾ (٢) . أي : إن أريناك بعض ما نتوعد به هؤلاء الكفار من العذاب من عاجل الدنيا حتى تراه نازلاً بهم في حياتك ، أو أخرنا ذلك عنهم إلى بعد وفاتك ووفاتهم ، فإن ذلك لايفوتهم لأن مرجعهم إلي حيث يجازى فيه العباد ولايملك بعضهم أمر بعض ، ويقول الكفار متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ قل لا أملك لنفسي ما توعدكم الله من هذا العذاب ولا أن أدفع عنكم سوء العقاب ، كما لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعًا ، فالمعنى إني لا أملك شيئًا من شئوني رداً وإيراداً مع

---

(١) يونس آية [٤٩] .
(٢) يونس آية [٤٦] .

أن ذلك أقرب حصولاً فكيف أملك شئونكم حتى أتسبب في إتيان عذابكم الموعود ، فتقديم الضر على النفع إذن بخروجها على ذكر العذاب الذي قال الله تعالى في شأنه بعدها ﴿ **أثم إذا ما وقع آمنتم به ، الآن وقد كنتم به تستعجلون** ﴾ [1] .

وهذا الذي ذكرته توجيهاً لتقديم الضر أظهر وأقرب مما ذكر من أن استطاعة الضر أهون من استطاعة النفع فيكون ذكر النفع بعده ارتقاءً [2] ، فإن المشار إليه بالضر في هذا السياق وهو العذاب المتوعدون به والمستعجلون له مما يعظم أمره إذ هو من قبيل ذلك العذاب المستأصل على نمط ما حل بأمثال هؤلاء من الأمم المكذبين إذا قدر ذلك سبحانه وشاء تعالى .

والمقصود من الجمع بين الضر والنفع الإحاطة بجنسي الأحوال ، فذكر النفع إذن لتوسيع الدائرة تتميماً لمعنى العجز عن ملك شيء ما ، فمعنى المزاوجة هنا بين الضر والنفع أنه ﷺ لايملك إلا ما يملك الله تعالي من عباده شيئًا منهما [3] على ما يؤخذ من الاستثناء المنقطع في قوله تعالى : ﴿ **إلا ما شاء الله** ﴾ أي لكن نفعي وضري هو ما يشاءه الله لي .

وهذا الجواب يقتضي إبطال كلامهم بالأسلوب المصطلح على تلقيبه في علم البديع بالمذهب الكلامي ، أي بطريق برهاني ، لأنه إذا كان الرسول ﷺ لايستطيع لنفسه ضراً ولا نفعاً فعدم استطاعته ما فيه ضر غيره بهذا الوعد أولى من حيث إن أقرب الأشياء إلى مقدرة المرء هو ما له اختصاص بذاته ، لأن الله أودع في الإنسان قدرة استعمال قواه وأعضائه ، فلو كان الله مقدراً إياه على إيجاد شيء من المنافع والمضار في أحوال الكون لكان أقرب الأشياء إلى إقداره ما له تعلق بأحوال ذاته ، لأن بعض أسبابها في مقدرته ، فالإنسان إذن يمضي في هذا الكون مسيراً في شئونه كلها بقدرة الله تعالى ، فلذلك قد يقع ما يضره

---

(١) يونس آية [٥١] .
(٢) التحرير والتنوير : جـ ١١ ، ص ١٨٩ .
(٣) درة التنزيل وغرة التأويل : ص ١٨٢ .

وهو عاجز عن دفعه . فكان معنى الجواب العموم أن الوعيد من الله تعالى لا مني وأنا لا أقدر على إنزاله بكم لأن له أجلاً عند الله .

الموضع الثالث :

قوله سبحانه وتعالى في شأن تسفيه عقول بني إسرائيل حيث اتخذوا العجل آلهًا مع علمهم أنه لايملك شيئًا من مقتضيات العباده ﴿ **أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ولايملك لهم ضرًا ولانفعًا** ﴾ (١) .

فالنظم الكريم ينكر على هؤلاء الضالين والمضلين هذه العبادة الفاسدة وتسفيه عقولهم فيما أقدموا عليه من المنكر الذي لايشتبه بطلانه ، واستحالة صدوره عن كل أحد يؤدي للعقل حقه فيتدبر أمر عبادته وحال معبوده ، أما هؤلاء فكأنهم قد عموا إذ هم لم يتدبروا ولم يفكروا إذ لو كانوا على شيء من ذلك لاهتدوا إلى فساد ما هم عليه ، بل يكفي لمن يعقل بأدنى تأمل ليقف على بطلان هذه العبادة ، أفلا يرون أنه لايقدر على أن يدفع عنه ضرًا ، أو يجلب لهم نفعًا ، أي : لايقدر على أن يضرهم إن لم يعبدوه أو ينفعهم إن عبدوه .

والجمع بين لفظي الضر والنفع في سياق النفي قد أفاد تحقق معنى الإنكار عليهم ، والتوبيخ لحال عبادتهم ، كما كان التركيب السابق المعطوف عليه مبينًا لهذا المعنى أيضًا ، فإن قوله ﴿ **ألا يرجع إليهم قولاً** ﴾ معناه : أن هذا العجل المتخذ من قبلهم إلهًا ، لايرجع إليهم كلامًا ، ولايرد عليهم جوابًا ، فكيف يتوهمون أنه إله ؟ وأما على قراءة يرجع بالنصب (٢) فقالوا : الرؤية حينئذ بصرية فأن الناصبة لاتقع بعد أفعال اليقين أي : ألا ينظرون فلا يبصرون عدم رجعه إليهم قولاً من الأقوال وتعليق الأبصار بما ذكر مع كونه أمرًا عدميًا للتنبيه على كمال ظهوره المستدعي لمزيد تشنيعهم .

وتقديم الضر على النفع هنا لأنه ليس في سياق يقتضي تقديم النفع ، ولعله

---

(١) طه آية [٨٩] .

يلمح أيضا من وراء التقديم في مثل هذه السياقات الرمز إلى معنى أن هذه المعبودات والتي لم يتصور وقوع الضر منها لتمام عجزها إلا إنه يقع الضرر من وراء عبادة عابديها على ما يوضحه قوله تعالى : ﴿ **يدعو لمن ضره أقرب من نفعه** ﴾ [1] بعد قوله تعالى : ﴿ **يدعو من دون الله ما لايضره وما لاينفعه** ﴾ [2] ، حيث سلب عن تلك الآلهة المزعومة أولاً كلاً من النفع والضر ، ثم أثبت تعالى من بعد وقوع الضرر ، ولاتعارض ولاتنافي لانفكاك الجهة ، أو لاختلاف الاعتبارين وسيأتي لهذا مزيد بيان قريبًا في موضعه .

الموضع الرابع :

قوله تعالى بيانًا لتمام عجز هذه الأوثان المتخذة آلهة من دون الله ، فإنها لاتعدوا أن تكون خلقًا من خلق الإله الحق مع عجزها عن إيجاد شيء ، بل وهي عاجزة عن أن تجلب لنفسها شيئًا من النفع ، أو تدرء عن نفسها شيئًا من الضرر كذلك : ﴿ **واتخذوا من دونه آلهة لايخلقون شيئًا وهم يخلقون ولايملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا ولايملكون موتًا ولا حياة ولا نشورًا** ﴾ [3] .

يجري الحديث في هذا النظم الكريم صريحًا في كشف وتعديد مظاهر وأمارات عجز ما يتخذ شركاء لله تعالى ، ولهذا ورد الكلام هنا عاريًا عن الإضافة إلى ضمائر العابدين المشركين على ما كان عليه الحال فيما سبقا ، وإن كان هؤلاء العابدون الآثمون معنيين بهذا ومخاطبين به ، فهم الذين اعتدوا بمثل هذه الأصنام وزعموها آلهة ، وإنما سلك النظم الكريم معهم طريق الحديث مع الغيب فيما صدر به النظم الحكيم جريًا على عرف الاستعمال القرآني في مثل هذا الشأن ، فعبادة غير الله تعالى ، وجعل لله شركاء وزعم من زعم كون الملائكة بنات الله ونحو هذا ، مما لايكون ، ولايتصور وجوده حاصلاً وماثلاً لأنه كذب وتمويه وإفك ، فليعبر عن مثل هذا إذن بما يفيد معنى الغيبة حتى ولو كان شيء من هذا

---

(١) الحج آية (١٣) (٢) الحج آية (١٢)

(٣) الفرقان آية [٣] .

واقعًا في اعتقاد هؤلاء الأفاكين فكأنه غير حاصل ، فهو والعدم سواء ، ولينزل المعتقدون لشيء منه منزلة الغيب حتى ولو كانوا في الحقيقة والواقع حضوراً ومخاطبين ، فإنهم بزعمهم الباطل واعتقادهم الفاسد صاروا غير أهل لأن يواجهوا بخطاب الإله الحق سبحانه وتعالى إذ هم بما صنعوا غير جديرين بنيل شرف هذا الخطاب .

كما أن إيراد المطابقات هنا دون تقييد بالإضافة إلى ضمير المخاطبين إشارة مبينه لضلال هؤلاء ، إذ آلهتهم هذه لايتهيأ لها ضراً ولا نفعًا لذواتها ، فضلاً عن أن يتيسر لها نفع أو ضر غيرها ، فإذا كان عجزها فيما يتصل بأمر نفسها حق وثابت فالعجز فيما يتصل بأمر غيرها أحق وأوضح وأدل على فساد أمثال هذه العبادات من كل وجه .

على أن مجيء هذا التركيب السالب عن آلهتهم ملك شيء من الضر والنفع بعد سلب عجزها عن إيجاد شيء من الخلق ، لبيان ما لم يدل عليه ما قبله من مراتب عجزها ، ومدى ضعفها ، فإن بعض المخلوقين العاجزين عن الخلق ربما يملك دفع ضر وجلب نفع في الجملة أو بمعايير البشر ، وهؤلاء لايقدرون على التصرف في ضر ما ليدفعوه عن نفوسها ولا نفع ما حتى يجلبوه إليها فكيف تملك شيئًا منهما لغيرها .

وتقديم ذكر ﴿ **ضراً** ﴾ لأن دفعه مع كونه أهم في نفسه أول مراتب النفع وأقدمها .

ولغرض التنصيص على مزيد عجز هذه الآلهة وسلب الأمر عنها من كل وجه وحال جاءت المطابقة من بعد في قوله تعالى : ﴿ **ولايملكون موتًا ولا حياة ولا نشوراً** ﴾ أي لايقدرون على التصرف في شيء منها بإماتة الأحياء وإحياء الموتى وبعثهم بعد بيان عجزها عما هو أهون من هذه الأمور من دفع الضر وجلب النفع للتصريح بعجزها عن كل واحد مما ذكر على التفصيل والتنبيه على أن الإله يجب أن يكون قادراً على جميع ذلك وفيه إيذان بغاية جهلهم وسخافة عقولهم كأنهم غير

عارفين بانتفاء ما نفي عن آلهتهم من الأمور المذكورة فهم مفتقرون إلى التصريح بذلك (١) .

ولعل تقديم موتًا مراعاة لتقديم ضرًا من حيث إن الموت في عرف الناس خاصة أمثال هؤلاء مما يكره ويتمنون الفرار منه ، وأيضًا لأن هؤلاء هم المقصودون أصلاً بالكلام فهم أحياء دون ريب ، وهذا لاينافي قصد التعميم بتنكير لفظي (موتًا) ولا (حياة) فكأن المراد أنها لاتملك أمر اماتتكم أيها الأحياء ولا أمر إحياء غيركم ، ولا أمر إعادة الحياة مرة أخرى للنشور والحساب ، لأنها غير قادرة على شيء من هذا كله أصلاً إذ هو من مقتضيات الإله الحق سبحانه وتعالى .

الموضع الخامس :

وهو الخاص بموقع الحج في قوله تعالى في شأن من لم يدم على الإيمان بل عاد إلى كفره وإشراكه الذي كان حين صار إلى عبادة لا نفع فيها بل هي على وجه اليقين تجر عليه ضرر العقاب وذلك في قوله تعالى : ﴿ **يدعو لمن ضره أقرب من نفعه** ﴾ ، ولكن لما كان لهذا الموقع تعلق واتصال بقوله تعالى قبله : ﴿ **يدعو من دون الله ما لايضره وما لاينفعه ..** ﴾ أرجأنا الكلام إلى حيث يكون الحديث مع تقديم فعل الضرر على النفع

الموضع السادس :

وهذا الموضع وارد في سياق الرد على أولئك الذين تخلفوا من الأعراب عن صحبته ﷺ في بيعة الرضوان معتذرين بأعذار ساقطة وكاذبة إذ لاتعبر عن واقع ولا عن حقيقة وإنما تزرع بما يشكف عن نفاق هؤلاء وينبيء عن دواخل نفوسهم ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك**

---

(١) تفسير أبي السعود : جـ ٦ ، ص ٢٠٢ .

لكم من الله شيئًا إن أراد بكم ضرًا أو أراد بكم نفعًا بل كان الله بما تعملون خبيرًا ﴾[1] أي : فمن يمنعكم من مشيئة الله وقضائه (إن أراد بكم) ما يضركم من قتل أو هزيمة (أو أراد بكم نفعًا) من ظفر وغنيمة وذلك أن رسول الله ﷺ حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمرًا استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه حذرًا من قريش أن يعرضوا له بحرب ، أو يصدوه عن البيت ، وأحرم هو ﷺ وساق معه الهدي ليعلم أنه لايريد حربًا ، فتثاقل كثير من الأعراب وقالوا : يذهب إلى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه فيقاتلهم ، وظنوا أنه يهلك فلا ينقلب إلى المدينة ، واعتلوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم ، وأنه ليس لهم من يقوم بأشغالهم [2] .

فالجمع بين نفي ملك أحد منع ما يريده الله تعالى بهؤلاء المعتذرين من ضر أو نفع قد فضح حقيقة أمرهم ، وبين فساد ما حاولوا به تسويغ أمر قعودهم وتخلفهم عن أمر رسول الله ﷺ .

ويلحظ أن النفي هنا حاصل من وراء الاستفهام بمن ، ولا ريب في أن الوصول إلى معنى النفي من غير ادواته الصريحة الدلالة عليه بل يأتي في طي أدوات لمعاني أخرى كما هنا ، فقصد النفي بأداه هي بحكم أصلها ووضعها للاستفهام مغزى فوق مجرد النفي ، إذ مجيء النفي مصورًا ومعبرًا عنه باستفهام يبقى لمعنى الاستفهام ملحظًا وأثرًا ، وهذا واضح هنا فإنه تعالى لم يشأ أن يأتي الرد عليهم في صورة الأمر المقرر من قبله تعالى ، فيأتي التركيب صريحًا في النفي مع أن ذلك حق وواقع ، وإنما عمد النظم الحكيم إلى إيراد الكلام مورد السؤال ، فكأنه يستحثهم ويستثير عقولهم وأن يجدوا في طلب من يملك لهم ضرًا أو نفعًا ، ثم إنهم من بعد ذلك لن يصلوا إلى ما يناقد هذا ، ففضل مثل هذا الأسلوب وبلاغته أنه يدل على وثوق المتكلم بمضمون كلامه ، وأنه لا سبيل إلى نقضه ، حيث إنه اذن للمخاطب إن أراد - أن يفتش وأن يدير المسألة في عقله ،

---

(١) الفتح آية [١١] .

(٢) الكشاف : جـ ٣ ، ص ٥٤٣ .

فكان النفي المأخوذ من وراء الاستفهام بهذا الاعتبار أدل وأكد للمعنى المراد من صريح النفي .

ولعل تقديم الضر هنا على النفع مراعاة لحال هؤلاء ، حيث كان مانعهم في الحقيقة خوف لحوق الضرر بهم على ما سبق إيضاحه ، فكان الرد عليهم بسبق الضر أنسب ليفيد أنهم وإن اعتذروا مهابة أن ينالهم ضر فناسب ذلك أن يعجل لهم في الجواب بما يحاذرونه في الحقيقة ، وإن حاولوا التمويه بظاهر كذب .

ثم إن تصدير الآية الكريمة بالسين المفيدة بحكم وضعها التأكيد والاستقبال نوع إعجاز ، حيث نبئ القرآن الكريم بما سيقع من هؤلاء وأكد ، وقد كان منهم ذلك ووقع .



ثانيا : تقديم الضر على النفع في الأفعال :-

جرى الاستعمال القرآني على هذا في ثلاثة مواضع كما سبق الإشارة ، في سياقات مختلفة .

الموضع الأول :

وهو في بيان حال فريق من اليهود ممن نبذ كتاب الله واستبدل به كتب السحرة مما كانت تقرأه مردة الجن في عهد سليمان – عليه السلام – يقول سبحانه وتعالى ﴿ **واتبعوا ماتتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولاينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ولبئس ما شتروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون** ﴾ [1] .

واضح أن الجمع بين فعلي الضر والنفع في هذا السياق ليس على حد المطابقة لخروج التركيب عن مفهومه فقد أثبت هنا لحوق الضرر بهؤلاء من وراء تعلمهم السحر وعملهم به ، ونفى امكان حصول نفع لهم بهذا ، فالضرر إذن حاصل ومتحقق ، والنفع منفي وغير واقع .

وإنما يلحق بهم الضرر بتعلمهم لأنهم يقصدون به العمل ، ولأن العلم بالسحر يجر إلى العمل به ، وإنما التصريح بنفي النفع مع أن ذلك مفهوم من اثبات الضرر اشارة إلى أنه ليس من الأمور المشوبه بالنفع والضرر ، فإن من الأمور ما يقع بها ضرر دون أن يعني ذلك حتمًا عدم النفع بها أصلاً ، إذ لا مانع من كون

---

(١) البقرة آية [١٠٢] .

الشيء على حال يقع به شيء من الضر والنفع معًا ، أو يقع الضر حينًا والنفع حينًا آخر ، أما هذا فهو شر بحت ، وضرر محض ، لأنهم لايقصدون به التخلص عن الاغترار بأكاذيب من يدعي النبوة مثلاً من السحرة أو تخليص الناس منه حتى يكون فيه نفع في الجملة ، وفيه أن الاجتناب عما لايؤمن غوائله خير ، وإن قيل (عرفت الشر لا للشر ، لكن لتوقيه ، ومن لايعرف الشر من الناس يقع فيه) .

وتقديم فعل الضر المثبت على فعل النفع المنفي مناسب لتمام حال هؤلاء ومآلهم فإن الضرر لاحق بهؤلاء ، وواقع بهم دون ريب : ﴿ **ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق** ﴾ فقد أفادت هذه الجملة تحقق علم هؤلاء اليهود الذين استبدلوا كتب السحر بكتاب الله محروم من كل خير وثواب في الآخرة ، ﴿ **ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون** ﴾ وفي هذا التركيب دلالة على أنهم حيث نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم فقد عرضوا أنفسهم للهلكة ، وباعوها بما لايزيدهم إلا تبارًا .

وقد جعلوا في حال من لايعلم ذلك مع علمهم به لعدم عملهم على مقتضى ما يعلمونه ، أولو كانوا يتفكرون في حقيقة حالهم وما سيجلبه عليهم من ضرر وحرمان ، فلا ينالهم شيء من رحمة الله تعالى ، إذ ليس الأمر خاصة – فيما يتصل بشئون الدين – يكفي العلم به على أي نحو ، وإنما المهم والمعول عليه دائمًا تبصره وأخذ النفس بدواعيه وموجباته .

وفي مجيء فعلي الضر والنفع على طريق المضارع ما يدل على أن ثبوت الضر لهؤلاء وانتفاء النفع عنهم أمر يحدث ويتجدد ما داموا على حال من تعلم السحر والعمل به ، ومن ثم صدر النظم الكريم بما يفيد إقبالهم عليه ، وانقيادهم له ، حتى لكأنهم لاينفكون عنه ، وذلك قوله تعالى : ﴿ **واتبعوا** ﴾ [1] والله أعلم .

الموضع الثاني :

وهذا موضع الحج ، وهو الوارد في سياق بيان حال من لم يستقر على

---

(١) سورة البقرة الآية (١٠٢)

الإيمان وعبادة الله على إخلاص ، بل نقص وارتد وصار إلى ما كان عليه حاله من قبل إظهار إسلامه ، حيث إنه لم يدخل فيه على اطمئنان ووثوق ويقين ، وإنما على طمع وأمل في تحصيل نفع على تقديره ، فإذا لم يكن له ما أراد وقدر عاد وارتد ، يقول الله سبحانه وتعالى في ذلك : **﴿ يدعو من دون الله ما لايضره وما لاينفعه ذلك هو الضلال البعيد ﴾** ، أي : صار هذا العابد لله على حرف بعدما افتقد وجدان ما رجى من نفع بإسلامه إلى عبادة هذه الأوثان التي لايكون منها ضرر أصلاً إذ هو اجتنبها ، كما لايكون منها نفع إذا هو لجأ إليها وعبدها ، فهذا المعبود هنا جماد ليس من شأنه الضر أو النفع ، كما يلوح به تكرار كلمة (ما) .

ومجيء فعلي الضر والنفع على صياغة المضارع يفيد كون تلك الحال في نفي الضر والنفع عن هذه المعبودات المزعومة حاصلة ومتكرره ومتجددة في كل وقت ومع كل عابد لها ظالم ، فهذا شأنها لاينفك عنها بحال ، ولهذا كان نفي كل من فعلي الضر والنفع بلا واقعًا موقعه لأفادة عدم تقيد هذا النفي بزمن أو حال بل هو مطرد ويعم الأحوال جميعًا .

ولعل تقديم فعل الضرر المنفي هنا إشارة إلى تمام خسران أمثال هذا المتحول إلى هذه العبادة الفاسدة ، إذ ما داعيه من وراء عودته إلى ما لايمتلك شيئًا من ضر يلجأ إليه رهبة ولايمتلك شيئًا كذلك من نفع فيصار إليه رغبة في نيل ما لم يحظ به حين تظاهر بالإسلام ، بل تلك العبادة خاسرة وضلال بعيد إذ يقع بها ويتسبب عنها حتمًا الضرر والعقاب إذ هي انحراف عن العبادة الحقة الموعود أصحابها من قبله سبحانه وتعالى بكل نفع وخير وثواب إلى هذه العبادة المستجلبة لبالغ الضرر بهم لتوعد من يكون عليها بما فيه ضرر وخسران وعقاب على ما يكشف عنه قوله سبحانه وتعالى : **﴿ يدعوا لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير ﴾** .

فهذه العبادة إذن محقق بها ضرر إذ هو مرتب عليها وحاصل بسببها ، وبهذا يزول الإشكال الذي قد يثار حول نفي كل من فعلي الضر والنفع مع الآية الكريمة

الأولى : ﴿ ما لا يضره ومالا ينفعه ﴾ ، ثم اثبات الضر في الآية الكريمة ، هنا : ﴿ لمن ضره اقرب من نفعه ﴾ ، إذ إنما يكون التعارض مع اتحاد الجهة والاعتبار ، وهنا الامر على غير هذا، فالجهة والاعتبار مختلفان ، فنفي امتلاك شئ من امر الضر والنفع عن هذه المعبودات من الوثن من حيث إنها في حقيقة أمرها وواقع حالها لا يقع منها أصلاً شيئًا من امر الضر والنفع فذلك منها محال ، فنفي الضر والنفع عنها اذن قائم على هذا الاعتبار ، وهو حق وواقع ، وأما إثبات الضر من بعد ذلك فانما هو باعتبار تسبب الضرر والعقاب بها ، لا من حيث أن الاصنام تضره بل إن عبادة من يعبدونها هى التي تجلب الضرر ، وعلى هذا فنفي الضر والنفع اولاً باعتبار ذات هذه العبودات الفاسدة وإثبات الضرر باعتبارذات العباده لا نفس ما عبد لانتفاء ذلك عنه حتماً .

ويبقى ما وراء إفراد الضمير اللاحق بالضر والنفع في هذين الموقعين : ﴿ما لا يضره وما لا ينفعه﴾، ﴿ لمن ضره أقرب من نفعه﴾ ،ذلك مرده إلى سياق الآيات حيث إنها واردة كما يذكر في اسباب النزول والتفسير في شأن معين من أهل النفاق وأهل الكتاب من اليهود [١] ، وكما أن إيراد الكلام ملحقًا به ضمير الافراد يرمز إلى تناول ذلك لكل من يكون على مثل هذا حال الذي كان منه وعينته اسباب النزول ، إذا العبرة كما هو معلوم ومكرر بعموم المعنى لا بخصوص السبب ، فهذا حال ومآل كل احد ممن يؤثر العباده الباطلة على العبادة الحقة لفوات مآربه العاجلة ، كما يلحظ في بناء الكلام على ضمير الغيبة اشارة إلى أن هذه الحال من قبيل تلك الاحوال التي يخبر عنها وعن اصحابها بضمير الغائب والمغيب لفقد تلك الاحوال القبيحة أهلية الخطاب فتلك درجة لا ينبغي لمثل تلك الاحوال الآثمة ، إذ هى مما ينبغي ألا تكون ، ولا تقع ، فإذا ما وقعت فليعبر عنها وعن من اوقعها في سبيل الغائب مع كونه حاضرًا ومعينًا .

---

[١] اسباب النزول للسيوطي صـ والتفسير الكبير ص

وهو الوارد في شأن بيان فساد فعل المشركين ، حيث يشركون به تعالى ما لا سند له ، ولا سلطان عليه ، بل هو محض افتراء ، وذلك إثر بيان فساد قولهم **﴿ ائت بقرآن غير هذا أو بدله ﴾** يقول سبحانه وتعالى : **﴿ ويعبدون من دون الله ما لايضرهم ولاينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بما لايعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾** (١) .

فهذا النظم الحكيم عطف ما فيه حال كفرهم وكشف بهتانه على ما فيه بيان حال بعض أحوالهم الممارية في الإسلام والقرآن والمبلغ به ، فإن في كلي الحالين كفرًا وإن عبروا عنه حينًا بما ينبيء عن الاستهزاء والتهكم والسخرية على نحو ما ظهر في أقوالهم في شأن القرآن الكريم والرسول المنزل عليه ﷺ كما أن حال عبادتهم للأوثان معتلين أحيانًا بدواعي وهي تنم وتشف عن معاني الاستهزاء والسخرية أيضًا .

وقد يكون جملة (يعبدون) إلخ عطفًا على جملة **﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبًا ﴾** (٢) فإن عبادتهم ما لا يضرهم ولا ينفعهم من الاغترار .

وقدم ذكر نفي الضر على نفي النفع لأن المطلوب من المشركين الإقلاع عن عبادة الأصنام ، وقد كان سدنتها يخوفون عبدتها بأنها تلحق بهم وبصبيانهم الضر ، كما قالت امرأة طفيل بن عمرو الدوسي حين أخبرها أنه أسلم ودعاها إلى أن تسلم فقالت : «أما تخشى على الصبية من ذي الشرى» فأريد الابتداء بنفي الضر للمبادرة بإزالة أوهام أمثال هؤلاء منهم من اتخذ عبادة الأصنام تخوفًا من لحوق ما فيه من ضر ، والتي هي في الحقيقة لاتعدوا أن تكون أوهامًا وخيالات نشأت عنهم وخالطت نفوسهم المنحرفة بفعل تلك العبادات الزائفة .

وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يرد عليهم بتهكم بهم بأنهم قد أخبروا الله بأن لهم شفعاء لهم عنده وذلك قوله تعالى **﴿ قل أتنبئون الله بما لايعلم ﴾** ومعنى ذلك

---

(١) يونس آية [١٨] . (٢) يونس آية [١٧] .

أن هذا لما كان شيئًا اخترعوه وهو غير واقع جعل اختراعه بمنزلة أنهم أعلموا الله به وكان لايعلمه فصار ذلك كناية عن بطلانه لأن ما لم يعلم الله بوقوعه فهو منتف . ومن هذا قول من يريد نفي شيء عن نفسه : ما علم الله هذا مني . وفي ضده قولهم في تأكيد وقوع الشيء : يعلم الله كذا ، حتى صار عند العرب من صيغ اليمين .

وإيثار اسم الموصول في قوله ﴿ ما لايضرهم ولاينفعهم ﴾ لما تؤذن به صلة الموصول من التنبيه على أنهم مخطئون في عبادة ما لايضر ولاينفع ، وفيه تمهيد لعطف ﴿ ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ لتحقير رأيهم من وراء الشفاعة من تلك الأصنام ، فإنها لاتقدر على ضر ولا نفع في الدنيا فهي أضعف مقدرة في الآخرة .

ونفي كل من الضر والنفع هنا مع صيغة المضارع فيهما مناسب للنسق كما هو ملائم لحال هؤلاء فهم لايزالون يعبدونها رهبة من لحاق ضرر بهم كما وهموا، ولايزالون يرجون من ورائها نفعًا كما زينت لهم أمانيهم الكاذبة وآمالهم الفارغة فهم يعتلون لهذه العبادة الآثمة بأنها تجلب لهم نفعًا فهم يعبدونها رغبة في أن تقربهم إلي الله زلفى ولا ينفك حالهم هكذا بين رهبة من لحوق ضرر ورغبة من تحصيل نفع ، ومن هنا ورد التعبير بنفي الضر والنفع بطريق المضارع ليذهب بهذا الزعم وليصرح بأن لا شأن لهذه الآلهة الزور شيء من أمر الضر أو النفع ، وأن هذا حالها لاينفك عنها في كل زمان ، يحدث ويتجدد .

ولمزيد تأكيد معنى انتفاء الضر والنفع جيء بحرف النفي (لا) الدال على ثبوت النفي غير مقيد بزمان مصاحبًا لكل من الضر والنفع .

كما أن إيثار صيغة المضارع في (يعبدون) و(يقولون) لاستحضار الحالة العجيبة من استمرارهم على عبادتها ، أي عبدوا الأصنام ويعبدونها تعجيبًا من تصميمهم على ضلالهم ومن قولهم ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ فاعترفوا بأن المتصرف هو الله [1] سبحانه وتعالى .

---

(١) التحرير والتنوير : جـ ١١ ، ص ١٢٥ .

المبحث الثاني

تقديم النفع على الضر

وحيث تقدم النفع على الضر تقدم لسابقة لفظ تضمن نفعًا فإن السوابق من الآيات تدعو إلى هذا التركيب إعمالاً لمقتضيات النظم القرآني البديع المعجز من حيث لايمكن بأية حال أن يستمر أحد من البشر فيما يكتبون أو يقولون على مراعاة مثل هذا ، بل تعمهم الغفلة غالبًا .

وقد ورد المطابقة بهذا التركيب مع تقديم النفع في ثمانية مواضع ، ثلاثة منها بلفظ الاسم – مصدراً

إحداها موقع الأعراف : ﴿ **قل لا أملك لنفسي نفعًا ولا ضراً إلا ما شاء الله** ﴾ [1] ، وثانيها موقع الرعد قوله تعالى : ﴿ **أفتخذتم من دونه أولياء لايملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ...** ﴾ [2] .

وثالثها موقع سبأ قوله تعالى ﴿ **فاليوم لايملك بعضكم لبعض نفعًا ولا ضرًا ...** ﴾ [3] .

كما ورد خمسة مواضع بلفظ المضارع . وهي

في الأنعام قوله تعالى ﴿ **قل أندعوا من دون الله ما لاينفعنا ولايضرنا ...** ﴾ [4] .

---

(١) الأعراف آية [١٨٨] .
(٢) الرعد آية [١٦] .
(٣) سبأ آية [٤٢] .
(٤) الأنعام آية [٧١] .

وفي يونس قوله تعالى : ﴿ **ولاتدع من دون الله ما لاينفعك ولايضرك ...** ﴾ (٥) .

وفي الأنبياء قوله تعالي : ﴿ **قال أفتعبدون من دون الله ما لاينفعكم شيئًا ولايضركم ...** ﴾ (١) .

وفي الفرقان قوله تعالى : ﴿ **ويعبدون من دون الله ما لاينفعهم ولايضرهم ...** ﴾ (٢) .

وآية الشعراء ، قوله تعالى : ﴿ **قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون ...** ﴾ (٣) .

وبعد الإجمال وذكر المواقع يأتي التفصيل والإبانة .

تقديم النفع على الضر مصدرين :-

سبق أن النفع قد ورد مقدمًا على الضر بصيغة المصدر في ثلاثة مواضع . فأما **الموضع الأول** ، وهو الوارد في مقام الرد والجواب عما سئل من تعيين زمن وقوع القيامة ، حيث عمد أولئك المعاندون إلى إيقاعه ﷺ في الحرج فطلبوا منه ما يعلمون قطعًا أنه ليس في طوقه فكان الرد عليهم بأكثر من طريق ، فقد اجيبوا عن سؤالهم هذا ببيان عجزه ﷺ عن علم ميقات الساعة بعد بيان عجز سائر البشر بل سائر الخلق وإبطال زعمهم الذي بنوا عليه سؤالهم من كونه ﷺ ممن يعلمها ، يقول سبحانه وتعالى في ذلك ﴿ **قل لا أملك لنفسي نفعًا ولا ضرًا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون**﴾ .

والتعرض لبيان عدم علمه ﷺ بزمان الساعة بذكر نفي ملك شيء من النفع والضر لإثبات نفي العلم بهذا بالطريق البرهاني فما دام لايتيسر له عليه الصلاة

---

(١) يونس آية [١٠٦] .
(٢)الأنبياء آية (٦٦)
(٣) الفرقان آية (٥٥)
(٤) الشعراء آية (٧٣)

والسلام امتلاك شيء ما مما هو نفع أو ضر حتى ولو كان ذلك يتصل بشئونه الخاصة – وهو الرسول المبلغ عن الله سوى ما أراد الله تعالى أن يملكه له فيثبت قطعًا وبطريق أولى عدم قدرته ﷺ على ما سألوه .

وتقديم النفع على الضر هنا لمناسبة السياق فقد تقدم : ﴿ **من يهدي الله فهو المهتدي ومن يضلل** ﴾ [1] فقدم الهداية على الضلالة ، وبعد ذلك : ﴿ **لاستكثرت من الخير وما مسني السوء** ﴾ فقدم الخير على السوء فلذلك قدم النفع على الضر [2] .

كما أن مجيء كل من النفع والضر على صيغة المصدر رمز إلى أنه ﷺ لايملك شيئًا من هذين ، قل أو كثر ، وأن ذلك حال ثابتة ودائمة ، وهذا دون ريب آكد في الجواب وأبلغ في إظهار الغرض ، ولهذا أيضًا صدر هذا الجواب بأمره ﷺ بقوله تعالى (قل) لإظهار كمال العناية بشأن هذا الجواب ، والتنبيه على استقلاله ، ومغايرته لما سبق الجواب به من قوله تعالى : ﴿ **قل إنما علمها عند ربي ...** ﴾ [3] .

الموضع الثاني :

وأما موقع الرعد فوارد في سياق الإلزام والتوبيخ لأولئك الجهال ممن سوغت لهم عقولهم المظلمة قبول اتخاذ الشركاء أولياء من بعد اقرارهم أو إعلامهم بأنه سبحانه وتعالى المالك فهو تعالىٰ وحده رب السموات والأرض يقول الله سبحانه وتعالى تصويرًا لذلك : ﴿ **قل من رب السموات والأرض ، قل الله ، قل أفاتخذتم من دونه أولياء لايملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ، قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور ، أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ، قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار** ﴾ [4] .

---

(١) الأعراف آية [١٧٨] . (٢) أسرار التكرار في القرآن : ص ٩٢

(٣) الأعراف آية [١٨٧] ، وينظر تفسير ابن السعود : جـ ٣ ، ص ٣٠٢ .

(٤) الرعد آية [١٦] .

وتقديم النفع على الضر هنا لسبق قوله تعالى﴿ **ولله يسجد من في السموات والأرض طوعًا وكرهًا** ﴾ فقدم الطوع على الكره فنسب تقديم النفع على الضر [1]

أو لأن المبادرة بذكر النفع أولاً أنسب بخصوص وصف الربوبية المذكور في هذا النظم الكريم ، إذ نفى ملك شيء من النفع والضر عن هذه الآلهة المفتراه وارد في سياق الإنكار والتوبيخ وتصوير مدى بهتان هذه العبادة الآثمة والكشف عن ضعف عقول فاعليها بعد ما أقروا أو اعلموا بأن الله تعالى هو الإله الحق وحده لأنه رب السموات والأرض وفي معنى الخلق ووصف الربوبية ، أشارات إلى النعم وأنه تعالى بربوبيته المنعم بخلقه ابتداء ثم بتدبير شئون هذا الخلق والقيام على مصالحه وتيسير ما في السموات وما في الأرض لتيسير أمر الحياة والمعاش ، ومع ذلك فإن هذا الفريق الضال جعل في مقابل الآله والرب الحق آلهة وأربابًا أخرى لايستطيعون شيئًا من جلب نفع أو درء ضر .

وقد يثار السؤال عن الداعي من وراء مخالفة ظاهر النسق إذن بتأخير ذكر ما فيه معنى الخير والنفع وتقديم ما فيه معنى الشر والضرر ، وذلك في قوله تعالى من بعد : ﴿ **قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور** ﴾ والذي يبدو لي جوابًا على هذا أن الغرض بما ذكر في هذه الجملة وما بها من مطابقات تصوير لآرائهم الركيكة بصورة المحسوس بالمقارنة والمقابلة بين حالهم المنكرة والتي ما كان ينبغي أن يكونوا عليها وبين الحال الأخرى التي عليها غيرهم وقد كان ينبغي أن يكونوا هم عليها أيضًا كان البدء والمبادرة بذكر ما يعبر عن سوء أحوالهم وعبادتهم وما يعبدون أدل وأكد في الكشف عن فساد ما هم عليه ليكون ذلك أدعى إلى مزيد في التبكيت والتوبيخ لهؤلاء ، فلفظ الأعمى ما اشتهر بين أهل التفسير والبيان تصوير لحال المشرك الجاهل بالعبادة ومستحقها ، أو هو تعبير عن المعبود الغافل عن أمر عابديه من حيث إنه لايدري عن أمر غيره ، بل ولا عن أمر نفسه شيئًا ، وأما (الظلمات) فمعبر بها عن هذه العبادات الآثمة ذاتها بعد التعبير بالعمى عن للعابدين الضالين أو عن المعبودات المزعومة ، وأما

---

(١) اسرار التكرار صـ ٩٢

البصير فمراد به الموحد العالم بذلك ، كما أن النور مستعار للتوحيد .

وحيث كان في الغرض على ما سبق الكشف عن تمام عجز هذه الآلهة المدعاه كان في مجيء نفي ملك النفع والضر عنها بصياغة المصدر المنكر آكد وأبين في تصوير مدى العجز ومنتهاه ، ولهذا المعنى كذلك علق نفي امتلاك الضر والنفع بقوله تعالى لأنفسهم بالإضافة إلى ضمير الشركاء وفي هذا المعنى يذكر صاحب الكشاف بعد قوله تعالى ﴿ **لايملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا** ﴾ لايستطيعون لأنفسهم أن ينفعوها أو يدفعوا عنها ضررًا ، فكيف يستطيعونه لغيرهم وقد آثرتموهم على الخالق الرازق المثيب المعاقب ؟ فما أبين ضلالكم [(١)] .

الموضع الثالث :

وأما موقع سبأ فوارد في معرض ما يقال للملائكة عليهم السلام عند جوابهم بالتنزه والتبرؤ عما نسب إليهم الكفرة يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **فاليوم لايملك بعضكم لبعض نفعًا ولا ضرًا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون** ﴾ [(٢)] يخاطب الملائكة بذلك من قبل الله تعالي على رءوس الأشهاد إظهارًا لعجزهم وقصورهم عند عبدتهم وتصريحًا بما يوجب خيبة رجائهم أصلاً .

والداعي لتقديم ذكر (نفعًا) هنا كما يذكر الكرماني فلأن قبله ﴿ **يبسط الله الرزق لمن يشاء ويقدر** ﴾ [(٢)] فحيث ذكر لفظ بسط الرزق أولاً ذكر بعده لفظ النفع الوارد مع الضر أولاً كذلك [(٣)] ، ثم إن خصوص لفظ النفع أمس رحمًا بالغرض ، وألصق بمقامه إذ الأمر عند هؤلاء العابدين مبني على طمع فارغ ، فقد كانوا يطمحون من وراء عبادتهم تحصيل ما فيه نفع يومئذ ، وأما ذكر الضر بعد النفع مع أنه لا مدخل له في غرض هؤلاء العبده فلقصد تصوير مدى العجز والقصور وتعميمه ليشمل كل وجه وحال .

---

(١) الكشاف : جـ ٢ ، ص ٣٥٥ .
(٢) سورة سبأ آية [٤٢] .
(٣)سورة سبأ آية [٣٦] .
(٤)أسرار التكرار في القرآن .

ونسبة عدم النفع والضر إلى البعض المبهم للمبالغة فيما هو المقصود الذي هو بيان عدم نفع الملائكة للعبدة بنظمه في سلك عدم نفع العبدة لهم كأن نفع الملائكة لعبدتهم في الاستحالة والانتفاء كنفع العبدة لهم .

تقديم النفع على الضر مضارعين

ورد الجمع بين لفظي النفع والضر على طريق المضارع في النظم القرآني الحكيم في خمسة مواضع على ما سبق ذكره .

وكما كان الشأن مع تقديم النفع لاستدعاء النسق والغرض ذلك فتقديم النفع مع المضارع ملحوظ معه هذه الصلة والمناسبة كذلك ، وسيتضح هذا بتفصيل المواضع .

وهو الوارد في شأن الرد والإنكار على بعض من ينتسبون إلى أهل أولي الفضل ، يقول سبحانه وتعالى في ذلك **(قل أندعوا من دون الله ما لاينفعنا ولايضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين** [1] .

تذكر بعض مصادر أسباب النزول [2] أن الآية الكريمة نزلت في الصديق أبي بكر رضي الله عنه حين دعاه ابنه : عبد الرحمن إلى عبادة الأصنام ، فتوجيه الأمر إلى رسول الله ﷺ حينئذ رمز إلى ما بين الصاحبين من شدة الاتصال تنويهًا بشأن الصديق رضي الله تعالى عنه وإضافة فعلى النفع والضر إلى ضمير المتكلمين هنا تشدد أمر الإنكار والرد على مثل هذه الدعاوي الباطلة ، إذ على العاقل أن يستبصر أموره ويستحضر العواقب خاصة فيما يتصل بأمور الدين

---

(١) الأنعام آية [٧١] .
(٢) ينظر أسباب النزول : ص .

التي من جملتها القدرة على النفع والضرأي : أنعبد ما لايقدر على نفعنا إذا عبدناه ولا على ضرنا إذا تركناه[1] .

ومجيء كل من النفع والضر هنا على صياغة الفعل المضارع مع تقديم فعل النفع فلسبقه معنى يتضمن فعلاً ، وقد قدم معه ما يشير إلى النفع وأوخر ما يشير إلى الضر ، ففي سورة الأنعام جاءت الآية الكريمة بعد قوله تعالى : ﴿ **ليس لهامن دون الله من ولي ولا شفيع ، وإن تعدل كل عدل لايؤخذمنها** ﴾[2] فالولاية والشفاعة تناسب النفع ، وعدم أخذ العدل يناسب الضر ، فجاءت الآية على هذا النسق ﴿ **قل أندعوا من دون الله ما لاينفعنا ولايضرنا** ﴾ بنفي كل من النفع والضر بلا الداله على كون ذلك الأمر شأن تلك المعبودات المزعومة ، فليس انتفاء النفع والضر عنها بمقيض بحال ولا بزمان بعينه ولا هو طاريء ينقضي ، ولذا كانت صيغة المضارعة مع النفع والضر معبره ، وتكرر حرف النفي معبرا عن هذا المعنى ومؤكدا له أيضًا ، ومناسبا لما قصد إليه النظم الكريم .

ثم إن في اضافة فعلي النفع والضر المنفيين إلى ضمير المتكلمين ما يشير إلى بهتان تلك العبادة وسقوطها عن حيز العقل السوي والفطره السليمة فضلاً عن الشرع الحنيف ، إذ كيف يعقل أو يتصور أو يقبل عبادة أمثال ما ينتفي عنها تحصيل نفع عابديها والعبادة الحقه تستدعي من القائمين عليها تدبر حقائقها وتعقل دواعيها وغاياتها ، وإلا فما قيمت ذلك العقل الموهوب من الله تعالى وقد خص به البشر تفضلاً منه سبحانه ، وتفضيلاً لآدم وذريته وبه يقع التكليف ، وسنامه التوحيد ، وبه أيضًا يكون الحساب على وفق ما قدر العقل لصاحبه وآثر .

وإذا كانت أمثال هذه المطابقات تقصد إلى حرمان هذه المعبودات المزعومة من أن تملك أمرًا من أمور نفسها أو عابديها فإن تلك المطابقات على هذا النحو موفيه تمامًا بهذا الغرض حيث سلبت عنها النفع والضر معًا ، ولايخلو الأمرعن هذا ، إذ الشيء أي شيء إنما يفعل أو يصار إليه رغبة تحصيل نفع أو درءًا لضرر ولا ثالث لهذين .

---

(١) تفسير أبي السعود : جـ ٣ ، ص ١٤٩ .   (٢) الأنعام آية [٧٠]

وإذا صار ذلك واضحاً ومعلوماً فمن المعلوم أيضاً تحقق وقوع الضرر ولحوقه بهؤلاء العبدة لأمثال هذه المعبودات المتخذه ، ولا تعارض بين هذا وبين الغرض المفاد من أمثال هذه المطابقات فإن الضرر اللاحق بأصحاب هذه العبادات الآثمة إنما هو واقع بهم باعتبار خطأ العبادة ذاتها وفسادها لا من قبل ما عبدوا من دون الله إذ هي وهم جميعاً في النار التي وقودها (الناس) من أمثال هؤلاء العبدة (والحجارة) [1] التي هي من قبيل تلك الأصنام على صريح ما ورد في قوله تعالى ﴿ **إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم** ﴾ [2] .

الموضع الثاني :

وهذا الموضع وارد في سياق تلك الأوامر والنواهي الموجه بحكم ظاهر الخطاب والنسق إلي رسول الله ﷺ بإخلاص التوجه في العبادة لله تعالى وحده ، وعدم الدخول في زمرة أهل الشرك ، وعبادة ما لا يرجى بعبادته نفع ولا يخشى بعدمها ضر ، يقول الله عز وجل في ذلك : ﴿ **ولاتدع من دون الله ما لاينفعك ولايضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين** ﴾ [3] .

وهذا الخطاب والنهي على سبيل التفصيل والتأكيد للنهي السابق في قوله تعالى : ﴿ **فلا تكونن من المشركين** ﴾ [4] إظهاراً لتمام الاهتمام بهذا الشأن ، وكشفاً عن وجه بطلان ما عليه المشركون ، أي : لاتدع (من دون الله) استقلالاً ولا اشتراكاً (ما لاينفعك) إن عبدته بدفع مكروه ، أو جلب مرغوب (ولايضرك) إذا تركته بسلب المحبوب دفعاً أو رفعاً ، أو بإيقاع المكروه .

وتقديم فعل النفع لأنه تقدمه قوله سبحانه وتعالى ﴿ **ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا** ﴾ [5] فناسب تقديم النفع رعاية للنجاة وهي نفع ، كما ناسب التعبير هنا عن النفع والضر بصفة المضارع لكون النجاه معبراً عنها به كذلك [6] .

---

(١) البقرة آية [٢٤]

(٢) الأنبياء آية [٩٨] .

(٣) يونس آية [١٠٦] .

(٤) يونس آية [١٠٥] .

(٥) يونس آية [١٠٣] .

(٦) ينظر أسرار التكرار في القرآن : ص .

وقد يلمح من وراء المبادرة بذكر النفع رمزًا إلى تحقق النفع قطعًا بترك هذا المنهي عنه خاصة والخطاب في ظاهر الحال متوجه إلى خير الخلق ﷺ وهو دون ريب قائم على أمر ومقتضيات تلك التكاليف بخلوص التوجه لله عز وجل والانصراف إلى عبادته وحده ، ومجانبة هذا الدنس والإشراك ، إذ لم يعهد عنه شيء من هذا حتى من قبل مبعثه والوحي إليه فما البال وقد أرسل وأوحي إليه وأمر بالتوحيد والبلاغ به ، وهنا قد يثار فلم ورود الخطاب على هذا النحو ما دام المنهي عنه غير حاصل ، بل ولايتصور وقوعه أصلاً في حقه ﷺ وحشاه أن يكون على شيء منه ؟

والجواب على هذا قريب وميسور ، فقد جرى عرف الاستعمال القرآني في كثير من المواقع على مثل هذا الخطاب ، وبطرق شتى من الأساليب في حقه ﷺ وفي حق كثير من رسل الله تعالى السابقين عليهم جميعًا الصلاة والسلام وتحت هذه المخاطبات اشارات ورموز إلى معاني جليلة فيها يتجلى سلطان الألوهية القاهر فسائر الخلق خاضعون لهذا السلطان فلا امتياز ولا استثناء ، ، فالكل أمام هذا الأمر سواء ، لتعلقه بأصل الدين ، فإن سنامه التوحيد وإذا كان أمثال هذه المخاطبات تجري أحكامها بحسب الظاهر على أمثال هؤلاء المعصومين فجريان أحكامها على المتلبسين بمضمون ما ورد فيها نهيًا واجتنابًا والعازمين عن امتثال مضمون ما ورد فيها أمرًا وتكليفًا أولى ، فهؤلاء معنيون من وراء هذه المخاطبات وإن كان ذلك على سبيل التعريض ، ولمثله فما البلاغة وإصابة الغرض المراد موقع ومغزى ، كما أن في أمثال هذه المخاطبات برهان صدق على صدقه ﷺ وسائر الرسل في أمر البلاغ عن الله تعالى حيث بلغ بكل ما أمر إبلاغه حتى وإن كان من أمثال تلك الأساليب الحاسمة التي ربما يقع بها شيء من الحرج في النفس ، لكنها نفوس أنبياء ورسل صفاها الإيمان الخالص ، ونقاها صدق اليقين ، وذكاها روح الفطرة ، والفطنة التي هي من أوصافهم جعلتهم في مأمن من أن يظنوا بنفوسهم ما لايتصور وما ليس مرادًا قطعًا وإنما هي رسالة وبلاغ ، وللدعوة والتبليغ مقتضيات ووسائل وأساليب توصل أو يرجى بها أن تصل بأمور التوحيد وتكاليفه إلى من يراد أن يصل به إليهم .

الموضع الثالث :

وفي الأنبياء جادل الكفار إبراهيم عليه السلام في أصنامهم فقالوا ﴿ **لقد علمت ما هؤلاء ينطقون** ﴾[1] حرصًا على بقائهم لمنفعتهم في زعمهم فقال تعالى ﴿ **أفتعبدون من دون الله ما لاينفعكم شيئًا ولايضركم** ﴾.[2]

ويلحظ في خصوص السياق هنا أمور لاتغيب مدلولاتها عن دارس البيان القرآني فقد صدر التركيب بالاستفهام المنبيء بعد التعجيب أو التوبيخ أو الاستهزاء ونحو هذا مما يقتضيه السياق إلى دعوة هؤلاء القوم إلى التفكر وتدبر ما عليه حال عبادتهم وما يعبدون إذ أن لا نعد دلالة الاستفهام على أمثال هذه المعاني يخرج به عن لمح معنى الاستفهام وأثره ، فإن أثره في الأسلوب باق ومعتد به ، فكأن إبراهيم عليه السلام يرمي مع ما يدل عليه الأسلوب من استهزاء بهم وتسفيه لعقولهم استثارتهم إلى تدبر الأمر والدعوة إلى تبصر الحق وهذه في الحقيقة مقصد الأنبياء عليهم السلام وغايتهم والغرض الأصيل المكلفون به ، والذي قد جدوا في السعي إليه وأفنوا حياتهم إخلاصًا واحتسابًا كي يصلوا بالبلاغ إلى من كلفوا بأن يصلوا به إليهم .

وأمر آخر نلحظه فتصدير فعل العبادة بالفاء بعد الاستفهام (أفتعبدون) يشف عن كلام مطوي قصد معناه إذ الفاء عاطفة لفعل العبادة على مقدر وكأن المعنى : أضللتم طريق الحق فتركتموه فتعبدون من دون الله ولا عذر لكم في ذلك إذ الرسل عليهم السلام مهمتهم الدلالة عليه والتبصير به ، وإبراهيم عليه السلام واحد من الرسل ، وقد فعل ما أمر به وبين وبصر ، فلما عميتم عن العبادة الحقه وتغافلتم عنها وتعبدون ما لاينفع ولايضر بل ما لاينفعكم شيئًا ولايضركم وهنا الملحظ الثالث ، فإن التعليق هنا بلفظ شيئًا هذا اللفظ المبهم الذي يأخذ حظه من المعنى على حسب سياقه يدل على انتفاء أمر النفع والضر من قبل هذه الأصنام أصلاً صغر ذلك الأمر أو كبر قل أو كثر إذ شأنها العجز التام ، يضاف إلى هذا أن

---

(١) الأنبياء آية [٦٥]
(٢) الأنبياء آية [٦٦] .

اضافة النفع والضر إلى ضمير هؤلاء العابدين لهذه الأصنام يكشف بل يفضح ما كان يستند إليه أمثال هؤلاء ويتعللون به أحيانًا من نحو أن عبادتهم لها لكونها تقربهم إلى الله زلفة فهي تجلب لهم نفعًا على هذا الزعم .

الموضع الرابع :

وأما هذا الموقع فقد تقدمه قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى ربك كيف مد الظل** ﴾ وعدد تعالى نعمًا جمه ، واستمرت الآيات في سياق تعداد نعم الله الجليله في عشر آيات [1] ، ثم جاء من بعد ذلك قوله تعالى : ﴿ **ويعبدون من دون الله مالاينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرًا** ﴾[2] فكان تقديم ذكر فعل النفع أنسب بهذا السياق .

كما أن اضافة لفظي النفع والضر إلى ضمير الغيبة العائد على هؤلاء العبده متسق مع ظاهر النسق والتركيب الذي بني عليه الكلام ، فهو وارد على طريق الغائب اشارة إلى أنهم بما هم عليه من أمر هذه العبادة الفاسدة ، قد صيروا أنفسهم بمعزل عن نيل شرف درجة المخاطبة من قبله تعالى ، وتلك طريقة من الطرق التي جرى عليها عرف الاستعمال القرآني في مثل هذه الشئون على ما أوضحته في موضع آخر من هذا البحث .

الموضع الخامس :

وأما موقع الشعراء في قوله تعالى : ﴿ **أو ينفعونكم أو يضرون** ﴾ فقد انفرد دون غيره بإضافة فعل النفع إلى ضمير المخاطبين على حين أطلق فعل الضر عن التقييد به .

والتعليل الظاهر لهذا مراعاة حق الفواصل السابقة واللاحقة ، فالآية الكريمة واردة وسط آيات فاصلتها الواو والنون على هذا النحو يقول تعالى : ﴿ **قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون ، قالوا بل وجدنا آبائنا**

---

(١) الفرقان من الآية [٤٥] إلى الآية [٥٤] .   (٢) الفرقان آية [٥٥] .

كذلك يفعلون قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون ﴾[1].

ولاريب في أن للفاصلة القرآنية بلاغتها وآثرها مما لايرجع فقط إلى التحسين الصوتي ونظم الكلام بل يتجاوز الأمر ذلك فهي خاصة من خواص النظم القرآني وبلاغته .

ثم إن مراعاة الفاصلة هنا لايمنع من سريان الخطاب إلى قوم إبراهيم عليه السلام فقرائن السياق والأحوال داله عليه فضلاً عن إضافة فعل النفع إليهم إذ المعنى : هل الأصنام التي بالغتم في عبادتها فظللتم لها عاكفين ينفعونكم شيئًا بسبب عبادتكم لها أو يضرونكم بترككم لعبادتها إذ لابد للعبادة لاسيما عند كونها على ما وصفتم من المبالغة فيها من جلب نفع أو دفع ضر ، وهذا مما لايكون ، لكن هذا لايمنع أيضًا من لمح مغزى من ورود فعل الضر دون تقييد ، فإن الشأن في أمثال هذه أنها لاترفع ضررًا عن أحد ، سواءًا لعابديها من قوم إبراهيم – عليه السلام – وأمثالهم أو من غيرهم ممن كانوا يخوفونهم فيزعمون أو يهددون بأن ثم ضرر يلحق بمن لايجاريهم في عبادتهم الظالمة ، أو يدعونهم إلى ترك ما هم عليه ويحاججهم في شأنها على نحو ما فعل أبو الأنبياء عليه السلام مع قومه كما هو حال السياق هنا ، فكأن المعنى : انظروا هل تحصلون أنتم أيها الجهلة من وراء عبادتكم هذه للأوثان نفعًا ما ، أديروا الأمر في عقولكم وتدبروه أنتم ثم أخبروني بما تقفون عليه ، وهذا مؤدى ورود الكلام مورد الاستفهام حتى ولو كان لايراد به حقيقة السؤال ، فإبراهيم عليه السلام على علم قطعًا بحقيقة الأمر ، وهل يكون من وراء ترك هذه العبادة ضررًا ما لأحد كائنًا من كان ؟ فإذا جوابهم : ﴿ **بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون** ﴾ فأثبتوا من حيث لايريدون سقوط حصول نفع الأصنام لهم أو وقوع الضرر منها أصلاً قطعًا ، اعترفوا بأنها بمعزل عما ذكر من السمع والمنفعة والمضرة بالمرة ، واضطروا إلى اظهار أن لا سند لهم سوى التقليد الأحمق أي ما علمنا أو ما رأينا منها شيئًا مما تسألنا عنه ﴿ **بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون** ﴾ أي فأمر عبادتنا إنما هو جرى على تقليد درج عليه أسلافنا ، وقد اقتدينا بهم ، فانظر كيف هداهم تفكيرهم الضال وعقولهم

(١) سورة الشعراء : الآيات [٧٢ إلى ٧٦] .

المظلمة إلى نحو هذا الجواب الساذج مما استوجب أن يجاب عليهم بما يفيد عموم البهتان وشمول الضلال لحالهم وحال أسلافهم ﴿ **لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين** ﴾ والله أعلم .



ولعله قد ظهر الآن بعد أن عرضنا المواضع التي ورد فيها الجمع بين لفظي النفع والضر في القرآن الكريم كيف كان مع كل موقع وسياق ما ينفرد به من خصوصيات التركيب ، وطريقة البناء ، أو من دلالات الصياغة ، أو رموز واشارات من القرائن والأحوال حتى وإن جاء أكثر من موقع مشتركًا في أصل الغرض بما ينفي شبه وباطلاً وبما يؤكد ثبوت أمر هو من أوصاف النبوة وبما ينفي أيضًا أمر كل عباده آلهة ، ثم هو من بعد كل هذا دليل على تفرده تعالى بالعبادة الحقة ومقتضياتها من امتلاك شئون الحياة والإحياء فعلى القدر الذي برزت عليه حال هذه المعبودات المكذوبة من تمام العجز سواء أكانت حجرًا أم بشرا ، أم ملكا فالكل في أمر هذا العجز سواء ، وبمقدار هذا العجز وتمامه يتأكد مدى سلطانه تعالى وبليغ قدرته في الخلق وتدبير شئونه نفعًا وضرًا ، كما كان في هذه السياقات ما هو دليل صدق على صدق الرسول ﷺ وأمانته في التبليغ عن ربه سبحانه ، حيث أمر أن يبلغ الناس ويعلمهم حين بدى منهم ما حاولوا به إيقاعه في الحرج بسؤالهم إياه عما لايدخل في طوقه من علم الساعة .

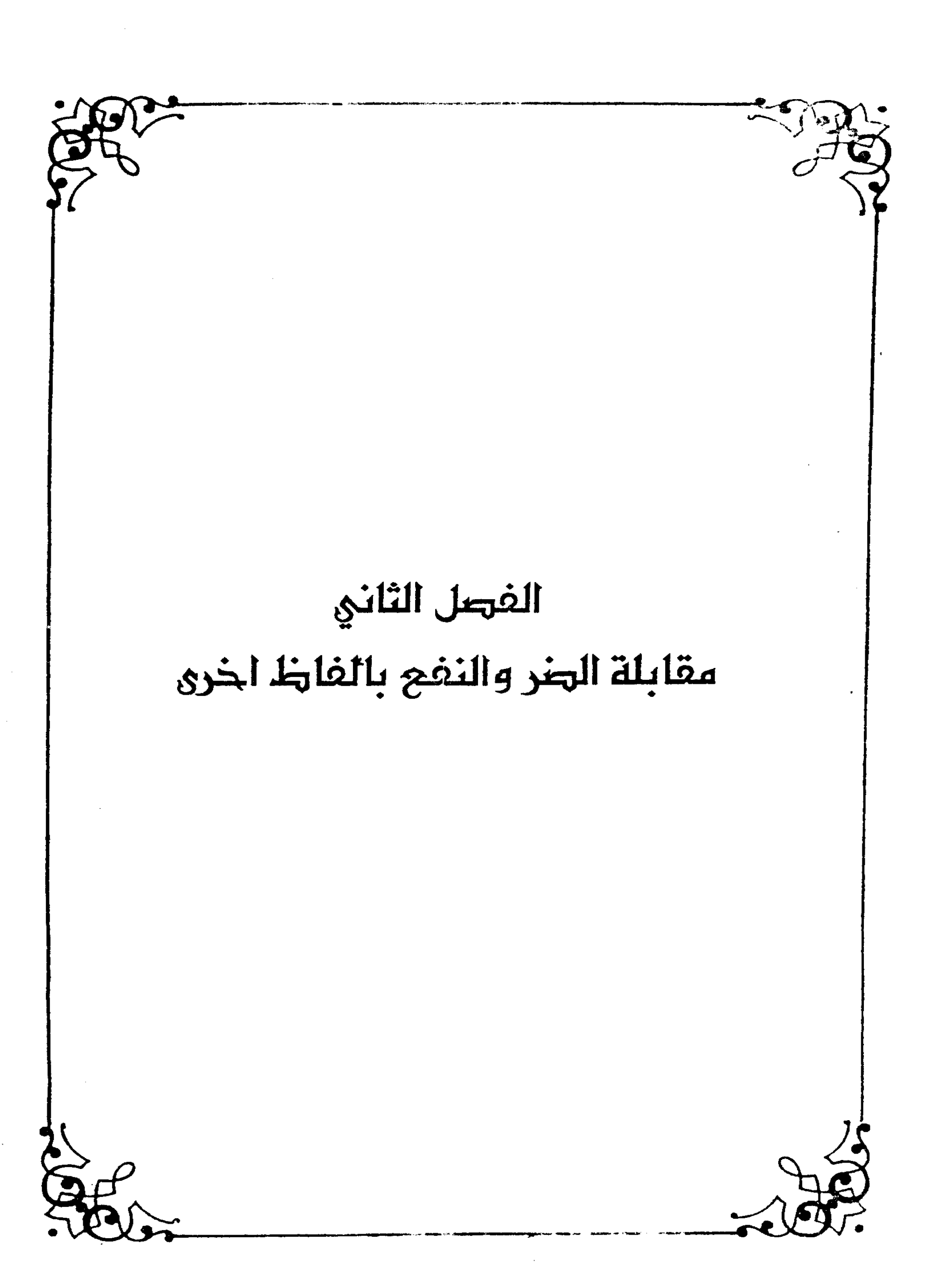
ثم إن هذه الأساليب تقطع بزوال وانتفاء شبهة قديمة وجديدة أو متجددة تتصل بالقرآن الكريم ذاته والتطاول عليه والطعن فيه وذلك فيما يزعمونه تكريرًا في الكتاب العزيز حين هداهم نظرهم الضال إلى أن القرآن الكريم يرد فيه اللفظة أو التركيب أو الآية وربما القصة في أكثر من موقع وسورة .

ومع اختلاف مشارب هؤلاء ومنازعهم وأجناسهم وألسنتهم وألوانهم وربما ملامح وجوههم أيضًا لكن يبقى الفهم والأصل الذي بنوا عليه معوجًا وغير صحيح يستوي في ذلك هؤلاء الذين عمدوا إلى دراسات في القرآن وعلومه بمناهج خادعة مع فقدهم الأدوات التي لابد منها لمن يريد أن يتصدى لهذا الميدان ، إذ هو ليس مباحًا لكل أحد وإنما له رجال وأدوات وشروط وقيود فليس القرآن الكريم وحاشاه أن يكون كتاب حساب وأعداد ولا هو من تلك الكتب التي تقوم على النظريات والمعادلات والأشكال المحددة إنما هو كتاب بيان وإعجاز ، فهو إذن ذو عطاء

ومغزى وإيحاءات وإيماءات إلى أمثال هذا مما يفتقر إلى ملكة في اللغة وفطرة نقية وعقل صحيح وغاية نبيلة وإحاطة بعلوم ومتون ، ثم من بعد كل هذا ومن قبله توفيق الله تعالى وفيضه على من يشاء من عباده فيطلعه على بعض أسرار كتابه ، ثم ليظل الأمر كذلك على الزمان يبدو لنا في كل حين بعض من أسرار كتابه العزيز على حين يظل أكثرها محجوباً حتى يبقى التعلق بالاعجاز وتطلب أسراره موصولاً وباقياً ، لأن هذا هو مبنى الإعجاز ذاته .

إنما قلت هذا وأطنبت الحديث فيه لأنا نرى البعض ينظر في القرآن الكريم تحت دعوى المنهج العلمي وكأنه كتاب احصاء يقوم على تساوي العدد في المقابلات ، أو هكذا ينبغي أن يكون ، حتى إذا افتقد ذلك مع بعض الألفاظ توقف ، وحامت الشبهة وتهيئت المطاعن ، ولعله قد تأكد من خلال ما سبق فساد أمثال هذه المناهج والنتائج التي بنيت عليها ولسوف يتأكد هذا أكثر من خلال ما نتحدث عنه في الفصول التالية إن شاء الله تعالى .





الفصل الثاني

مقابلة الضر والنفع بألفاظ اخرى



وكما وقع الجمع بين لفظي النفع والضر في المواضع السبعة عشرة على ما مر تفصيله فقد ورد في النظم الكريم الجمع بين لفظ النفع أو الضر وبين ما في معناهما في مواضع أحصيت منها ثلاثة عشر ، وقد ورد في أحد عشر موضعًا الجمع بين لفظ الضر وبين ما فيه معنى النفع وهي الخير والنعمة والسراء والرحمة والرشد .

جاء الجمع بين الضر والرشد في موضع واحد قوله تعالى : ﴿ **قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا** ﴾ (1) .

كما ورد الجمع بين الرحمة والضراء في موضعين ، ففي قوله تعالى : ﴿ **وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا** ﴾ (2) .

وفي قوله تعالى : ﴿ **ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي** ﴾ (3) .

وأما ذكر النعمة في مقابل مادة الضر ففي ثلاثة مواضع .

ففي قوله تعالى : ﴿ **ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني** ﴾ (4) .

وفي قوله تعالي : ﴿ **وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون** ﴾ (5) .

وفي قوله تعالى : ﴿ **وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبًا إليه** ﴾ (6) .

---

(1) الجـن آية [21] .
(2) يونس آية [21] .
(3) فصلت آية [50] .
(4) هـود آية [10] .
(5) النحـل آية [53] .
(6) سورة الزمر الآية [8]

وأما مقابلة الضراء بالسراء فوارد في موضعين .

في قوله تعالى : ﴿ **الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس** ﴾ (١) وفي قوله تعالى : ﴿ **وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة** ﴾ (٢) .

وبين الخير والضر في ثلاثة مواضع .

في قوله تعالى ﴿ **وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو** ﴾ (٣) .
وفي قوله تعالى ﴿ **وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو** ﴾ (٤) .
وفي قوله تعالى ﴿ **إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره** ﴾ (٥) .

وأما لفظ النفع فقد جاء مقابلاً بما في معنى الضر وهو الاثم في موضعين متعاقبين في قوله تعالى : ﴿ **يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس ، واثمهما أكبر من نفعهما** ﴾ (٦) .

والمهم التماس الوجه من وراء إيثار التعبير بهذه الألفاظ .

والذي يبدو لي فيما يتصل بالتعبير عن معنى النفع بنحو النعمة والرحمة أن خصوص هذه الألفاظ أليق وأنسب بالحديث الذي هي فيه حيث وردت مسندة إليه تعالى إما صريحًا وإما باعتبار مفاد المعنى ومآله ومعلوم أن مثل ألفاظ النعمة والرحمة والخير والرشد أليق بهذا الاسناد من صريح لفظ النفع ، فليس كل ما فيه نفع خير خالص أو نعمه محضة ، بل قد يخالط ما فيه نفع ما منه مفسدة وسوء حال وسوء مصير ، فالشيء قد يكون نافعًا باعتبار ثم يكون هذا الشيء ذاته

---

(١) آل عمران آية [١٣٤] .
(٢) الأعراف آية [٩٥] .
(٣) الأنعام آية [١٧] .
(٤) يونس آية [١٠٧] .
(٥) الزمر آية [٣٨] .
(٦) البقرة آية [٢١٩] .

ضاراً وجالباً لأصول الفساد ، فالخمر والميسر محكوم عليهما بصريح النظم الكريم بأن فيهما منافع كما حكم عليهما بصريح النظم الحكيم كذلك بالتلبس بالاثم ، لهذا أري العدول عن اسناد صريح لفظ النفع إليه تعالي جرياً على عرف القرآن الكريم في مراعاة باب الأدب في الخطاب يؤكد هذا عدم اسناد صريح لفظ الضر الوارد في مقابل هذه الألفاظ المعبر بها دون النفع إليه تعالى في غالب المواقع ، فانظر إلى مثل قوله تعالى ﴿ **وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون** ﴾ ترى النعمة مسندة إليه تعالى صريحاً على حين أسند الضر إلى ضمير المس مع أن الكل من عنده تعالى فهو مسند إليه في الحقيقة .

وعلى أية حال فما ذكرت أوردته على سبيل الاحتمال ثم هو لايعدوا أن يكون توجيهاً عاماً لايمنع من محاولة التماس ما هو أخص بكل سياق وهذا ما نرجو أن يكون ويتضح من ذكر المواضع وتفصيلاً .

ولا ريب في أن من وراء كل استعمال وإيثار ما ورد التعبير به مغزى ومعنى

مقابلة الضر بالرشد :

وفي موضع الجن : قوله تعالى : ﴿ **قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً** ﴾ [1] ، يذكر أبو السعود كأنه أريد لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً ولا غياً ولا رشداً فترك من كلى المتقابلين ما ذكر في الآخر [2] .

وعند الفخر تفسير الرشد بالنفع ، وتقدير الكلام : لا أملك لكم غياً ولا رشداً ، ويدل عليه قراءة أبي ﴿ **غياً ولا رشداً** ﴾ ومعنى الكلام : أن النافع والضار ، والمرشد والمغوي هو الله ، وإن أحداً من الخلق لا قدرة له عليه ، والمعنى : لا أستطيع أن أقسركم على الغيّ والرشد ، إنما القادر على ذلك الله عز وجل

(١) الجن آية [٢١] .

(٢) تفسير ابن السعود : جـ ٩ ، ص ٤٦ .

وعلى ذلك فالمراد بالرشد هنا النفع المقابل بلفظ الضر قبله ، والتعبير عنه بالرشد من حيث كان المراد بالضر في هذا السياق الغواية فحسن بذلك ايقاع الرشد في مقابلته .

ولعل ايثار التعبير بخصوص لفظ الرشد دون النفع مراعاة لجانب الأدب في الخطاب من حيث إن من وراء انتفاء امتلاك أمر الرشد عنه يثبت اختصاصه تعالى دون غيره بهذا الأمر .

الجمع بين الضر والخير :

وقد يرد مقابلة الضر بلفظ الخير وذلك في موقع الأنعام قوله تعالى : **﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير ﴾**[1] ، وفي قوله تعالى : **﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله ﴾**[2] .

واضح في الآيتين الكريمتين مقابلة الضر بالخير ، كما يلحظ اقتران كل من الشرط والجزاء في الآية الأولى ، وإن يمسسك بخير ، ويجعل جواب الشرط الثاني (فهو على كل شيء قدير) ثم قرن في الآية الثانية إلى جملتي الشرط والجزاء (وإن يردك بخير) وجعل جوابه فلا راد لفضله ، فخالف الأولى .

وتوجيه ابن الخطيب لهذا أن آية الأنعام مراد بها : إن يمسسك الله ضراً وهو سوء الحال فلا مزيل له غير الله ولايملك ما يعبد من دونه كشفه ، ومعنى يمسسك ينالك ، لأن المماسة في الأعراض مجاز وتوسع في اللغة ، فمعنى مسه الله بضر أناله ضراً وأوصله إليه .. وقوله : وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير ، أي : ينلك خيراً يرج لأكثر منه فإنه قادر عليه وعلى أمثاله .

فالمعنى إن نقلك إلى سوء حال لم يملك كشفه عنك غيره ، وذلك كشدائد

---

(١) الأنعام آية [١٧] .

(٢) يونس آية [١٠٧] .

الدنيا من الأمراض والآلام والنقصان في الأموال وإن نقلك إلى حسن حال كان بعده قادرًا على أمثاله ومالكًا لأضعافه ، لأنه سبحانه القادر على كل شيء

وأما آية يونس ففيها نفي أن يغالبه مغالب ويمنعه عما يريد فعله مانع ، لأن معناها إذا أنزل بك مكروهًا لم يقدر أحد على دفع ما يريد إيقاعه بك ، وإن أراد إحلال خير بك لم يرده أحد عنك ، وهو معنى لا مانع لما اعطيت ولا معطي لما منعت ، ورتبة هذا الوصف بعد رتبة الوصف الأول ، لأنه يوصف الفاعل أولاً بقدرته على الضدين ، وليس كل من كان كذلك كان ممتنعًا ، على أن يقهره قاهر فيحول بينه وبين ما يريد فعله ، فإذا وصفه بأنه قادر كان وصفه بأنه قادر غالب للقادرين لايدفعه عن مراده دافع وصفًا ثانيًا ، فلاق بكل موضع ما ورد فيه ونطق القرآن به ، فالذي اقتضى هذا الوصف في الآيتين قوله قبل الأولى : (قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولاتكونن من المشركين) أي : إني لا أعبد إلهًا معه فأشرك به . وقوله قبل الآية الثانية ﴿ **ولاتدع من دون الله ما لاينفعك ولايضرك ، فإن فعلت فإنك إذًا من الظالمين** ﴾ يونس آية [١٠٦])[١].

مقابلة الرحمة بالضر :

الموضع الأول :

وهو الوارد في بيان حال كثير من الناس ممن يجحدون أثر النعمة وتخليصهم من الشدائد من قبله تعالى بما يستدعي مصيرًا معتمًا ، يقول سبحانه وتعالى في ذلك : ﴿ **وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا ، قل الله أسرع مكرًا ، إن رسلنا يكتبون ما يمكرون** ﴾[٢] .

والمراد بالرحمة هنا على ما يذكر أهل التفسير ما كان من نحو صحة و سعة وزوال المكروب ، فالرحمة بهذا المعنى تعني النفع في مقابلة الضراء ، والتعبير عن هذه بالرحمة دال على أن ما يفيضه تعالى على عباده من وجوه النعيم وتخليصهم مما ألم بهم بعد أن ضاقت بهم الحال واستولى القنوط حيث خالطهم حتى ابسلوا

---

(١) درة التنزيل : ص ١١٤ .   (٢) يونس آية [٢١] .

بسوء أثرها إنما هو من فيض رحمته بعباده مع علمه تعالى بجحود أمثال هؤلاء وانقلابهم من بعد إلى المكابرة والجحود لذم الله تعالى عليهم وتكذيب آلائه .

ويلحظ هنا اسناد المساس إلى الضراء بعد اسناد الإذاقة إلى ضمير الجلالة وذلك جرى على عرف الاستعمال القرآني في أدب المخاطبة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾[1] حيث اسند فعل المرض في الظاهر إلى ضمير الخليل عليه السلام على حين أسند فعل الشفاء إلى الله تعالى بالضمير العائد عليه سبحانه ، وإن كان الكل في الحقيقة من قبله تعالى .

وقد ذكروا في أسباب النزول أنه تعالى قد سلط القحط على أهل مكة سبع سنين حتى كادوا يهلكون ثم رحمهم بالمطر فطفقوا يطعنون في آياته تعالى ويعادون رسوله ﷺ ويكيدون له بالطعن والدفع والاحتيال ، وذلك المعبر عنه بقوله تعالى ﴿ إذا لهم مكر في آياتنا ﴾ ، ويلحظ في موقع (إذا) هنا جوابًا عن (إذا) الأولى معنى المفاجئة وذلك يصور أنهم قد أتوا بما كان لاينبغي أن يكون منهم بعد ما من الله تعالى عليهم بدلائل رحمته غير أنهم خالفوا المتوقع والذي ينبغي أن يكون وسارعوا إلى وجوه الصد والكيد وبالغوا في ذلك على ما يفهم من وراء صياغة مكرهم على التنكير (مكرًا) .

الموضع الثاني :

وهو الوارد في مثل تلك الحال التي كانت في الموضع السابق غير أن هنا زيادة تفصيل لوجوه المكابرة التي تكون من ذلك القبيل من الناس ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا .... إلى وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلي ربي إن لي عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ** ﴾[2] ، أي : وإذا فرجنا عنه بصحة بعد مرض أو سعة بعد ضيق قال (هذا لي) أي : هذا حقي وصل إليّ لأني استوجبته بما عندي من خير وفضل وأعمال بر ، أو هذا لي لايزول عني وما

(١) سورة الشعراء ، الآية [٨٠]
(٢) فصلت آية [٥٠] .

أظن الساعة تقوم (وإن لي) عند الله الحالة الحسنى من الكرامة والنعمة قائساً أمر الآخرة على أمر الدنيا ، فانظر كيف تكون المكابرة من هؤلاء الجحود أمثال الوليد بن المغيرة حيث يذكر في أسباب النزول .[1]

فلفظ رحمة في هذا السياق أيضاً معنى به ما يكون من نحو صحة ومال ، وذكر الرحمة مشعر بتمام فضلة تعالي وبالغ نعمه على خلقه حتى على أمثال هؤلاء مع علمه تعالى بما يقع منهم ويكون من كفران .

الموضع الثالث :

وهو الوارد بياناً لإقرار الكفرة بوجود الإله الخالق القادر ، والتدليل على أن ما يجعلونه أنداداً لله لاتملك من أمر النفع أو الضر شيئاً ، يقول سبحانه وتعالى في ذلك : ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ، قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته ، قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون** ﴾[2] .

وحيث ثبت أن هذه المعبودات لاقدرة لها أصلاً على الخير والشر ، فلا تملك درء مكروه أراده الله تعالى وقدره ، ولا منع خير ونفع عمن أراده تعالى ، يثبت أمر الوحدانية لله تعالى ، فعبادته سبحانه وحده والاعتماد عليه تعالى كاف فلا التفات إلى تخويف المشركين على نحو ما كان منهم ترهيباً للمسلمين ، وصداً لمن يريد الدخول في الإسلام منهم ، وبهذا يفهم وجه تقديم الضر على الرحمة في هذا السياق فإن الكلام هنا وارد في مقام الرد والجواب عما ذكره الله تعالى قبل هذه الآية وهو قوله تعالى : (ويخوفونك بالذين من دونه)[3] وايراد (كاشفات) و(ممسكات) على صيغة التأنيث مشعر بكمال ضعف هذه المعبودات فإن الأنوثة مظنة الضعف ولأنهم كانوا يصفونها بالتأنيث ويقولون اللات والعزى ومناة[4] .

---

(١) الكشاف : جـ ٣ ، ص ٤٥٧ .
(٢) سورة الزمر : الآية [٣٨] .
(٣) سورة الزمر : الآية [٣٦] .
(٤) التفسير الكبير : جـ ٢٦، ص٢٨٢.

مقابلة الضر بالنعمة :

ورد لفظ النعمة مقابلاً للضر في ثلاثة مواضع في النظم الحكيم ، قدم فيها لفظ النعمة صريحًا في موضعين وإن كان المعنى في أحدهما على اعتبار التأخير على حين تقدم لفظ الضر في الموضع الآخر .

الموضع الأول :

وهو ما قدم فيه لفظ النعمة على الضر وذلك قوله تعالى بيانًا لكونه المتفضل على عباده بما هم فيه من نعيم ، كما أنه تعالى وحده الذي يلجئون إليه رفعًا لما يلحقهم من مكروه : ﴿ **وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون** ﴾ [1] .

وهذا التركيب : (وما بكم من نعمة) يفيد أن أي شيء من وجوه النعم الملابسة للمخاطبين والمصاحبة لهم مردها إلى الله تعالى ، إذ هو المتفضل بها عليهم ، كما أن التركيب في مس الضر يكون الضر قد مسهم مسًا يسيرًا ، ومع ذلك لايصبرون ، بل يسارعون إلى الاستغاثة إليه تعالى رجاء أن يذهب ما حل بهم ، وكأنهم في حال السعة والنعيم على غير ذكر المنعم سبحانه مع ملابسة ومصاحبة نعم الله تعالى لهم ، وأما إذا وقع بهم شيء من مكروه تعرفوا إليه تعالى ، فلا يلجأون إلا إليه حينئذ ، وقد كانوا ينكرونه حال النعيم .

وإيثار التعبير بلفظ النعمة دون النفع في مقابلة الضر من حيث إن النعمة أليق بخصوص أمثال هذه السياقات ، إذ ربما يكون النفع مفضيًا إلى فساد أو اثم وهو نفع باعتبار وبناء على هذا الحال كمنافع الخمر والميسر على خلاف النعمة ، ولذلك كان الإخبار بها على جهة الاسناد إلى الله تعالى أيضًا أنسب من ذكر صريح لفظ النفع .

---

(١) النحل آية [٥٣] .

ويلحظ هنا ذكر المساس المنبيء على أدنى اصابة ، وإيراده بالجملة الفعلية المعربة عن الحدوث مع ثم الدالة على وقوعه بعد برهة من الدهر وتحلية الضر بلام الجنس المفيدة بمساس ما ينطلق عليه اسم الجنس مع إيراد النعمة بالجملة الاسمية الدالة على الدوام ، والتعبير عن ملابستها للمخاطبين بباء المصاحبة وإيراد (ما) الدالة على معني العموم كذلك .

الموضع الثاني :

وذلك في سياق بيان حال المغتر بما أفيض عليه من نعم الله ، فصار منشغلاً بها دون تذكر المنعم ومقتضيات النعمة ، بل أخذ يبدي أمارات البطر والفخر على الناس يقول الله سبحانه : ﴿ **ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور** ﴾ (١) .

والمراد بالنعماء كصحة بعد سقم ، وجدة بعد عدم ، وفرج بعد ضيق .

وفي التعبير عن ملابسة الرحمة والنعماء بالذوق المؤذن بلذتهما وكونهما مما يرغب فيه ، وعن ملابسة الضراء بالمس المشعر بكونه في أدنى ما ينطلق عليه اسم الملاقاة من درجاتها واسناد الأول إلى الله عز وجل دون الثاني ما لايخفى من البلاغة إذ معه دلالة على أن مراده تعالى إنما هو إيصال الخير المرغوب فيه على أحسن ما يكون وأنه سبحانه إنما يريد بعباده اليسر لا العسر ، وإنما يقع بهم من الضراء لسوء اختيارهم ، ومع ذلك ينالهم منه نيلاً يسيراً كأنما يلاحق البشرة من غير تأثير .

وحيث كانت النعمة هنا في مقابلة الضراء وردت على صياغتها .

الموضع الثالث :

وهو الوارد في بيان تناقض أولئك الكفرة من عباد الأصنام حيث يلجئون إليه تعالى وحده إذا ما حل بهم شيء من كره ، وإذا أزال سبحانه الضر عنهم

---

(١) هود الآية [١٠] .

واستبدلهم به نعمًا صاروا إلى عبادة الأوثان ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبًا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعوا إليه من قبل وجعل لله أندادًا ليضل عن سبيله** ﴾ [1] .

ومعلوم أنهم إنما رجعوا إلى الله تعالى عند حصول الضر ، لأنه هو القادر على إيصال الخير ودفع الضر ، وإذا عرفوا أن الأمر كذلك في بعض الأحوال كان الواجب عليهم أن يعترفوا به في كل الأحوال فثبت أن طريقتهم في هذا الباب متناقضة .

والإنسان هنا أقوام معينون مثل عتبة بن ربيعة وغيره ، على ما هو مذكور في أسباب النزول ، أو هو الكافر الذي تقدم ذكره ، لأن الكلام يخرج على معهود تقدم .

والضر هنا يدخل فيه جميع المكاره سواء كان في جسمه أو في ماله أو أهله وولده ، لأن اللفظ مطلق فلا معنى للتقييد ، وحينئذ تكون منه الاستجارة بربه ولم يؤمل في كشف الضر عنه سواه ، فلذلك قال : (منيبًا إليه) أي : راجعًا إليه وحده في إزالة ذلك؛ الضر ، لأن الإنابة هي الرجوع ، حتى إذا ما تفضل الله عليه بذهاب ما لحق به واستبدله به نعمه ، نسي ربه الذي كان يتضرع إليه من قبل ويبتهل إليه ، وفي وجه التعبير بقوله (خولناه نعمة) يذكر صاحب الكشاف في ذلك وجهين أحدهما : جعله خائل مال من قولهم هو خائل مال وخال مال ، إذا كان متعهدًا له حسن القيام به. ، ومنه ما روي عن رسول الله ﷺ : «أنه كان يتخول أصحابه بالموعظة» أي : يتعهدهم بها حينًا بعد حين ، والثاني : جعله يخول من خال يخول إذا اختال وافتخر ، وفي المعنى قالت العرب : إن الغني طويل الذيل مساس [2] .

---

(١) الزمر آية [٨] .

(٢) ينظر الكشاف : جـ ٣ ، ص ٣٨٩ ، التفسير الكبير : جـ ٢٦ ، ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، درة التنزيل : ص ٤٢١ .

مقابلة الضراء بالسراء :

وقد ورد ذلك في موضعين :

الموضع الأول :

وهو الوارد في وصف أحوال أهل الإيمان والتي كانت من وراء فضل الله عليهم بوعدهم الجنة : ﴿ **الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين** ﴾ [1] ، فأمثال هؤلاء قد تمكن الإيمان من قلوبهم فصاروا على وثوق ويقين حتى صاروا إلى مرتبة الإحسان عملاً وسلوكًا فهم في حال الانفاق على حال من لايخشى من الإنفاق فقرًا فينفق في حال دون حال إنما هم ينفقون وقلوبهم مطمئنة ونفوسهم راضية يستوي في ذلك الإنفاق حال السراء واليسار والسعة وحال الضراء والضيق والحرج فذلك قد صار لهم طبعًا وعرفا يقع منهم ويتجدد على ما يؤذن به بناء فعل الإنفاق على صياغة المضارع .

ولعل في تقديم السراء ما يرمز إلى ما عليه حال هؤلاء من سرور النفس وسعادة القلب عند الإنفاق ، فهم من ذلك القبيل الذي يسر الله إليه سماحة الطبع وانشراح الصدر فاتسعت نفوسهم لتلقي أذى الغير بحلم وصفح فلا اندفاع وراء دواعي الغضب والانتقام . بل مسامحه وقد صار ذلك منهم طبعًا وسجية وعرفًا وخلقًا تجرى عليه أحوالهم مع الناس .

الموضع الثاني :

وإذ قد حاولنا التماس ما عساه يكون من وراء تقديم لفظ السراء على الضراء فما الوجه لتأخيره في موقع الاعراف والوارد في قص احدى السنن التي جرى عليها الماضون من الأمم المكذبة لكل نبى أتاهم فقد أحل الله بهم من المضار

---

(١) آل عمران اية [١٣٤] .

والمفاقر ما جعلهم يلجئون إليه تعالى ويتضرعون إليه تذللاً ويحطون أردية الكبر والعزة الآثمة عن اكتفاهم ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لايشعرون** ﴾ [1] ، أي : بدلهم ربهم سبحانه الرخاء والسعة بما كانوا عليه من البلاء والمحنة حتى كثروا عدداً وعدة وأبطرتهم النعمة فنسوا المُنعِمَ بها عليهم وهذا مفاد : (عفوا) على تفسير أبي السعود ، مأخوذ من عفا النبات إذا كثر وتكاثف وحينئذ استولى عليهم الكبر فلم يع الدرس ولم يتفقوا عن الحكمة والغاية بل ذهبوا يبررون غير واقفين على أن ما أصابهم من الأمر ابتلاء من الله سبحانه فما وقع قد سبق وقوع مثله على الآباء ، وما هو إلا من عادة الدهر يتعاقب على الناس بين الضراء والسراء من غير أن يكون هناك داعية تؤدي إليهما أو تبعة تترتب عليهما ولعل تأخير السراء للإشعار بأنها تعقب الضراء فلا ضير فيها حتى لكأنهم بذلك يوقعون في نفوسهم الاطمئنان بأن ما قد يقع بهم من ضر لن يدوم بل سيزول وسيحل محله النعيم والسعة والسلامة إلى نحو ذلك من وجوه السراء فانظر كيف كان تأخير السراء هنا محققاً لأغراض المتكلمين ومتسقاً مع خصوص السياق كما كان تقديم السراء على الضراء فالموضع السابق مشعراً بما يلائم حال المذكورين والحديث في شأنهم .

مقابلة النفع بما في معنى الضر :

ورد في الكتاب العزيز مقابلة النفع بما في معنى الضر في موضعين ، وإن كان في غرض وسياق واحد .

فقد ورد في سياق الجواب على السؤال في شأن الخمر والميسر . يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما ...** ﴾ [2] .

---

(١) الأعراف الآيات [٩٤ ، ٩٥] . تفسير أبو السعود : جـ ٣ ، ص ٢٥٣ .
(٢) البقرة آية [٢١٩] .

فالنفع الحاصل من الخمر والميسر مقابل هنا بالاثم الواقع بهما والمستجلب العقوبة ومن والحد والغضب من قبله تعالى ، إذ هما من أمهات المفاسد والمضار ، فهما خبث ورجس من أعمال الشيطان دون ريب ،لكن لما كان يقع بهما نفع من نحو زيادة مال وثراء ومن متعاملين بهما زراعة أو صنعًا أو تجارة كانت مقابلة الاثم بالنفع مراعاة لظاهر حال واقعة

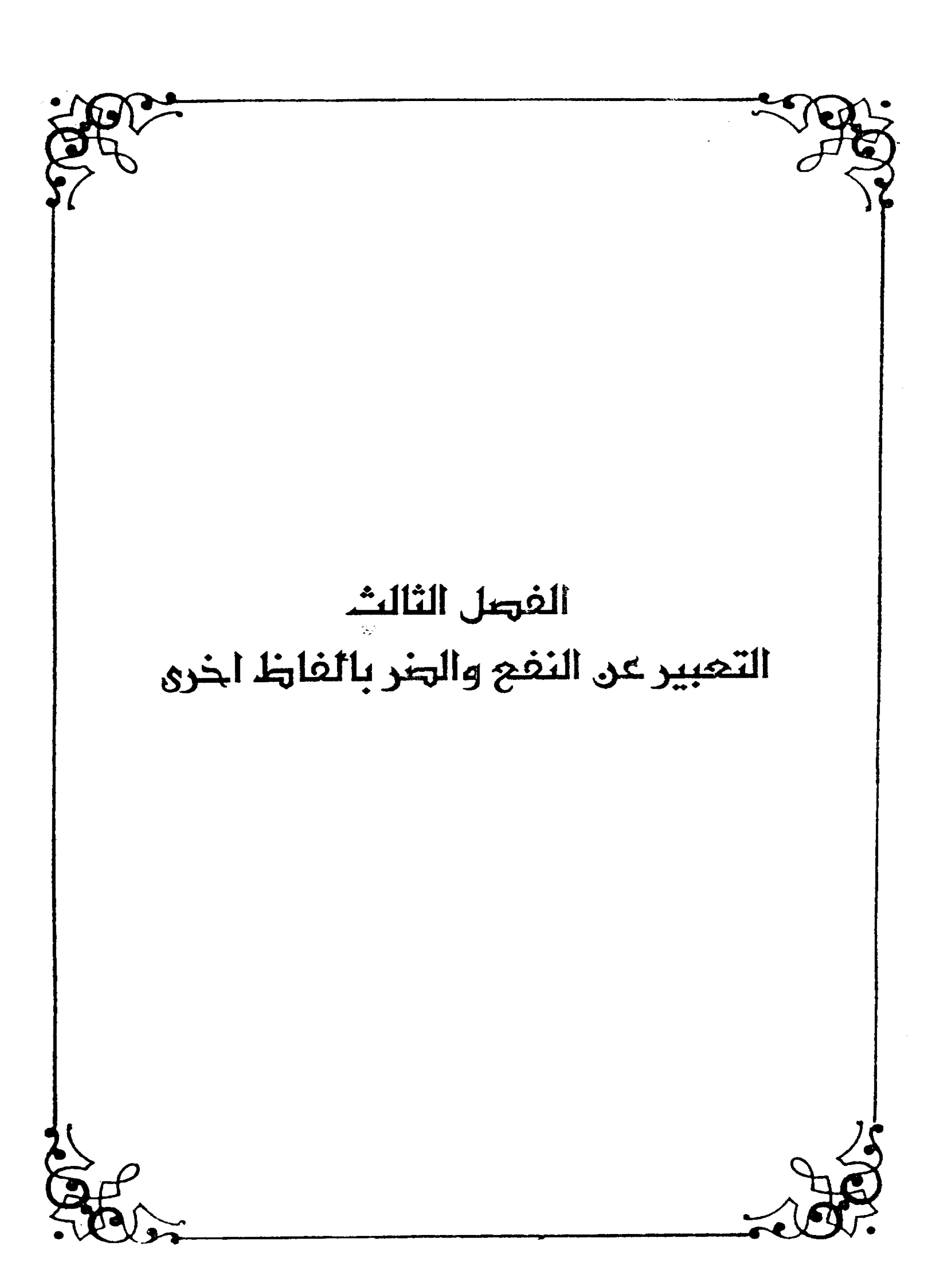
وما يلحظ من وراء جمع منافع الخمر والميسر مع افراد الاثم الحاصل بهما مرده والله أعلم إلى مراعاة تعدد النفع بالنسبة لمن يتعاملون في شئونهما فهناك من يقوم على زراعة ما يعصر خمرًا ، وهناك من يقوم على اخراج ما زرع خمرًا ، كما أن هناك من يقوم على أمر تجارتها والترويج لها أو تهيئة مجالسها إلى نحو ذلك ، كذا الشأن في الميسر فمن جالب لتلك المجالس السوء والمُعدُ والمهيء لها وما يستتبع ذلك والكل طامع في تحصيل نفع من مال وثراء أو صحبة آثمة وعرض دنيء ، لكن على آية حال يبقى مثل هذا في نفوس أمثال هؤلاء نفع يسعون إليه مع أنه في الدقيقة ضرر محض وفساد خالص .

وحيث تؤذن مقابلة منافع الخمر والميسر على صيغة الجمع بتعدد وجوه النفع فيهما وصف الاثم لمقابل لهذه المنافع بوصفبالكبر ولكن لما كان هذا الوصف يؤذن أو يوحي بالتسوية بين الاثم الموصوف بالكبر والنفع المجموع جاء التعقيب بما هو صريح في بالغ الاثم فيهما ، وأنه فوق كل نفع يحصل بهما ، واثمهما أكبر من نفعهما و يلحظ هنا خروج كل من الاثم والنفع على صيغة المصدر على خلاف ما كان عليه التركيب السابق ، قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس ، كما يلحظ وصف الاثم هنا (أكبر) على صيغة التفضيل ليحصل بذلك انتفاء المساواة بين النفع والاثم ، وليتحقق معنى عظم الجرم من وراء هاتين الكبيرتين ثم إنه يلحظ كذلك ايثار التعبير في هذا السياق بلفظ النفع دون غيره مما قد يؤدي أصل معناه من نحو الخير فإن أمثال هذه الموبقات شر لا خير فيه أصلاً ، مع ما قد يجلب من ورائهما وإن كان في ظاهره نفع ومال ومآرب أخرى لكن كل هذا يؤول إلى

ضرر في العقل والجسم والنفس وفساد السلوك مما يفضي إلى هلاك وموت أو إلى حياة قاتمة ، ثم نلحظ كذلك في التعبير في جانب الاثم بفي المفيدة معنى الاحاطة والحلول فالاثم مغموس فيهما وهما قد صارا له وعاء ومحل ، فالاثم على نحو من التمكن والحلول والملابسة لاينفك عنهما بحال ، ثم هو ليس اثماً ككل الآثام ، بل هو اثم كبير بوصف الله سبحانه وتعالى له .

أرأيت كيف كان الجواب منه تعالى على سؤاله ﷺ من قبل القوم عن أمر الخمر والميسر كيف روعي في الجواب أولاً ما عليه الحال في واقع الحياة وظاهر الأمر عند الناس ، ثم ترقى في الجواب ، فكشف ما عليه حقيقة الأمر في شأنهما والله أعلم .





الفصل الثالث

التعبير عن النفع والضر بالفاظ اخرى



بعد أن وقفنا على المواضع التي ورد فيها الجمع بصريح ألفاظ النفع والضر ، وكذا التي ورد فيها التعبير عن أحد الطرفين بما يدل على معنى النفع أو الضر ، يبقى الحديث عما كان يدل على النفع والضر معًا حيث لايذكر في التركيب صريح لفظ النفع والضر ، بل يعبر عنهما بألفاظ أخرى تفيد أو تؤل إليهما .

والناظر في الكتاب العزيز يجد صوراً عديدة لهذا الطريق كالتعبير عنهما بلفظ الخير والشر ، أو الخوف والطمع أو الخوف والأمن ، أو الرغب والرهب ، إلى أمثال هذا .

وما من ريب في أن من وراء كل تركيب أو ثر فيه التعبير بما هو فيه معنى وغرضًا يبينه أو يلمح إليه سياقه ، وحال الكلام معه على نحو ما مضى .

الخير والشر :

يأتي لفظ الخير مقترنًا بلفظ الشر ومقابلاً له مع تقدم الخير في بعض المواضع نظير قوله تعالى : ﴿ **ولايحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرًا لهم بل هو شر لهم** ﴾ [1] ، وكذا قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **لايسئم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط** ﴾ [2] .

والأكثر مجيء لفظ الشر متقدمًا في الذكر الحكيم كقوله تعالى : ﴿ **ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم** ﴾ [3] ، وقوله تعالى : ﴿ **ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً** ﴾ [4] ، وقوله تعالى : ﴿ **ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون** ﴾ [5] ، وقوله تعالى : ﴿ **لاتحسبوه شرًا لكم بل هو خير لكم** ﴾ [6] وقوله تعالى : ﴿ **إذا مسه الشر جزوعًا ، وإذا مسه الخير منوعًا** ﴾ [7] ،

---

(1) آل عمران آية [١٨٠] .
(2) فصلت آية [٤٩] .
(3) يونس آية [١١] .
(4) الإسراء آية [١١] .
(5) النــور آية [١١] .
(6) الأنبياء آية [٣٥] .
(7) المعارج آية [٢١] .

وقوله تعالى : ﴿ **ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً** ﴾ [1] ، وقوله تعالى : ﴿ **ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون** ﴾ [2] ، وقوله تعالى : ﴿ **لاتحسبوه شرًا لكم بل هو خير لكم** ﴾ [3] وقوله تعالى : ﴿ **إذا مسه الشر جزوعًا ، وإذا مسه الخير منوعًا** ﴾ [4] ، وقوله تعالى : ﴿ **وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خيرٌ لكم** ﴾ [5] .

فأما قوله سبحانه وتعالى تسلية للنبي ﷺ والصديق وابنته الصديقة حين امتدت ألسنة السوء لتتطاول على البيت الشريف : ﴿ **إن الذين جاءوا بالإفك عُصبة منكم لاتحسبوه شرًا لكم ، بل هو خير لكم ، لكل امريء منهم ما اكتسب من الاثم والذي تولى كبره منهم له عذاب أليم** ﴾ [6] .

فالآية الكريمة في سياق تسكين قلب النبي ﷺ وتطييب نفسه هو ومن يتصل بهم هذا الافك ، وكذا المخلصون من أهل الإيمان ، إذ أن تلك الشائعة الآثمة قد أثارت في نفوسهم شيئًا غير يسير من الضيق ، فمع اليقين بأن ما أثير إنما هو محض افتراء وكذب ، وأن ذلك مما لايمكن تصور شيء منه في آل بيت النبوة المختار باختيار الله تعالى ، لكن الذي لاشك فيه أيضًا أن أمثال هذه المفتريات مما تلوقها ألسنة السوء ، وتتناقلها العقول العابثة دون تدبر لمراميها وخطرها على الدعوة، مما القى بظلاله في نفوس أهل الإيمان خاصة ، أن الأمر يتصل مباشرة برأس الدعوة وصديقه وبينهما أم المؤمنين ، ثم إن تلك العصبة الآفكة قد (جاءوا بالافك) وهذا التعبير يفيد أنهم قد جاءوا بأبلغ ما يكون من الكذب والافتراء ، فكما ذكر أن الافك : البهتان لاتشعر به حتى يفجئك وأصله الافك وهو القلب لأنه مأفوك عن وجهة وسننه ، وفي لفظ المجيء إشارة إلى أنهم أظهروه من عند أنفسهم من غير أن يكون له أصل ، كما أنهم اجتهدوا في الترويج له وتناول أحاديثه ، ينبيء

---

(1) الإسراء آية [11] .
(2) الأنبياء آية [35] .
(3) النـــور آية [11] .
(4) المعارج آية [21] .
(5) البقـرة آية [216] .
(6) النـــور آية [11] .

عن هذا اقتران باء المصاحبة جاءوا بالافك حتى لكأنهم اصطحبوا افكهم معهم في مجالسهم يشيعونه ويروجون له ، فهو ملازم لهم ، وهم متلبسون به .

والتعبير عما خالط النفوس من آثار ذلك بالشر الذي اضرب الله عنه ونفاه وأثبت بدلاً منه (خير) يشعر بثقل هذا الأمر على نفوس أهل الإيمان وبالغ أثره حتى بدى لهم بما هو عليه من شناعة واشاعة للكذب أن ذلك شر محض لا خير فيه أصلاً ، فحسن بذلك التعبير بالشر الذي هو في حسبانهم ثم ليضرب عنه وليقع موقعه الخير .

فالشر على ما يذكر الراغب : ما يرغب عنه الكل ، كما أن الشر يؤذن بمعنى النفره منه ، وعدم توقع الخير من ورائه ، ولهذا نلحظ أن لفظ الشر لم يرد مسنداً إلى الله تعالى وأنه حيث نسب الخير إليه تعالى ورد في مقابلة امساس الضر كما في قوله تعالى : ﴿ **وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير** ﴾ فلم يعبر عن الضر بالشر في مقابل الخير جريًا على مراعاة الأنسب والأليق في الاسناد إلى الله على سنن الأدب في المخاطبة ، وأما هنا فالمراد بلفظ الشر تعبير عن حال واقعة في النفوس بهذا الاثم والبهتان ، فقد تصور شرًا محضًا ، فكان أن أزال الله تعالى عنهم ما حسبوه ، فليطو عن ذلك وليضرب عنه وليحل محله تبصر ما ورائه من وجوه الخير ، ففي مثل هذا درس وعبره . ووجه الخيرية : فيما حسبوه شرًا : اكتسابهم به الثواب العظيم ، وظهور كرامتهم على الله تعالى ، بإنزال ثماني عشرة آية في نزاهة ساحتهم ، وتعظيم شأنهم ، وتشديد الوعيد فيمن تكلم فيهم ، والثناء على من ظن بهم خيراً .

ومن الجمع بين لفظ الخير والشر كذلك قوله تعالى بيانًا لشأن من الشئون التي يجري على مقتضاها أكثر الناس من مقابلة الفضل والإنعام من الله تعالى بالمنع والإمساك ، ومقابلة الابتلاء بالجزع والسخط في قوله تعالى :

﴿ **إن الإنسان خُلِقَ هلوعًا . إذا مسه الشر جزوعًا . وإذا مسه الخير منوعًا** ﴾ [1]

---

(١) المعارج الآيات : [١٩ ، ٢٠ ، ٢١] .

، والهلع على ما يذكر في الكشاف : سرعة الجزع عند مس المكروه ، وسرعة المنع عند مس الخير من قولهم ناقة هلواع سريعة السير ، والهلوع كما يأخذ من النظم الكريم هو الذي إذا ناله شر من نحو فقر أو مرض أظهر شدة الجزع ، وإذا ناله خير من نحو مال وصحة منع المعروف وشح بماله [1]

وواضح أنه حيث قوبل الخير هنا بصريح لفظ الشر كان الاسناد إلى ضمير المس اتساقًا مع العرف الذي جرى عليه الاستعمال القرآني ومراعاة ما هو أنسب في باب المخاطبة ، ولعل من وراء تقديم مس الخير اشارة إلى سبق فضل الله تعالى وانعامه على الإنسان ومع ذلك يجحد وينكر .

ومن مقابلة لفظ الشر بلفظ الخير في القرآن الكريم أيضًا قوله سبحانه وتعالى في معرض تحريض أهل الإيمان على أمر القتال والجهاد ، وإزالة ما قد يعتري نفوسهم من مخاوف ، إذ النفوس كأنها مطبوعة على كراهة الحرب لما يلازمها ويستبقها من مكاره وأذى يقول تعالى : ﴿ **كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم والله يعلم وأنت لاتعلمون** ﴾[2]

ومقابلة لفظ خير في جانب ما يكره بلفظ الشر في جانب ما يحب وقد يرغب إليه مما نهوا وقد استطاب ويستميل النفس دليل على أن أمر التكاليف الشرعية ، كالجهاد وقتال الأعداء من ورائه خير وغايات قد يبدو بعضها للملكفين ، وقد يغيب عنهم حكمها ، كما أن التكاليف التي من قبيل النواهي قد يبدوا فيها ما يستميل ويستهوي النفوس ويغيب ما ورائها في الحقيقة من ضرر واثم ، فمقتضى الإيمان الحق العمل على مقتضيات من كلف وأمر ونهى سبحانه وتعالى دون القاء بال بما قد يبدوا ويظهر من مكاره فيما كلفنا به أمرًا ، أو وجود منافع وملاذ فيما كلفنا به نهيًا ، إذ ذلك مبني على علم الظاهر ، وأما الله سبحانه فقد كلف بما كلف وهو

(١) الكشاف : جـ ٤ صـ ١٥٨.

(٢) سورة البقرة الآية ٢١٦

العليم ببواطن الأمور مما لاسبيل لنا إلى ادراكه .

وتقديم لفظ : (خير) هنا لأنه في سياق بيان حال ما قد يكره مع كونه من باب الخير وإن كنا لانعلم وجهة ، فالكلام أصلاً في سياق الحث على الجهاد المكتوب والذي هو من قبيل ما قد تعزف بعض النفوس عنه ، ثم جاء بما يقابل ذلك من حب ورغبة والإقبال على ما من ورائه شر حتى يستبين بتلك المقابلة بين كراهة ما من ورائه خير وبين حب ما ورائه شر الغرض على أتم وجه .



الجمع بين الحسنة والسيئة

يذكر الراغب أن : الحسن عبارة عن كل مبهج مرغوب فيه ، وذلك ثلاثة أضرب :

مستحسن من جهة العقل ، ومستحسن من جهة الهوى ، ومستحسن من جهة الحس ، والحسنة يعبر بها عن كل ما يسر من نعمة تنال الإنسان في نفسه وبدنه وأحواله ، والسيئة تضادها ، وهما من الألفاظ المشتركة كالحيوان الواقع على أنواع مختلفة كالفرس والإنسان وغيرهما .

وقد ورد الجمع بين مادتي الحسنة والسيئة في ثمانية عشر موضعًا في القرآن الكريم ، وقد تقدم في أكثرها لفظ الحسنة بصيغة الافراد والجمع ، فقد جاء الجمع بين لفظ الحسنة والسيئة على صيغة الإفراد في ثلاثة عشر موضعًا تقدم لفظ الحسنة في اثني عشرة منها سواء كان ذلك بصيغة الاسم أو الفعل الماضي .

في قوله تعالى : ﴿ **إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها** ﴾ [1] .

وفي قوله تعالى: ﴿ **وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله** ﴾ [2] .

وفي قوله تعالى : ﴿ **وما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك** ﴾ [3] .

وفي قوله تعالى ﴿ **من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها** ﴾ [4] .

وفي قوله تعالى : ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها** ﴾ [5] .

وفي قوله تعالى : ﴿ **فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه** ﴾ [6] .

---

(١) آل عمران اية [١٢٠] .
(٢) النساء آية [٧٨] .
(٣) النساء آية [٧٩] .
(٤) النساء آية [٨٥] .
(٥) الأنعام آية [١٦٠] .
(٦) الأعراف آية [١٣١] .

وقوله تعالى : ﴿ **إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها** ﴾ [1] .

وقوله تعالى : ﴿ **ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون** ﴾ [2] .

وفي قوله تعالى : ﴿ **أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة** ﴾ [3] .

وقوله تعالى : ﴿ **من جاء بالحسنة فله خير منها** ﴾ [4] .

وقوله تعالى : ﴿ **ولاتستوي الحسنة ولا السيئة** ﴾ [5] .

وتأخر لفظ الحسنة في ثلاثة مواضع :

في قوله تعالى : ﴿ **ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا** ﴾ [6] .

وقوله تعالى : ﴿ **ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة** ﴾ [7] .

وقوله تعالى : ﴿ **قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة** ﴾ [8] .

وأما الحسنات والسيئات على صيغة الجمع فوارد في ثلاثة مواضع قدم لفظ حسنات في موضعين منها :

قوله تعالى : ﴿ **وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون** ﴾ [9] .

وقوله تعالى : ﴿ **إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾ [10] .

وأما موقع الفرقان فجاء لفظ حسنات معه مؤخرًا ، يقول تعالى : ﴿ **فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات** ﴾ [11] .

---

(١) الاسراء آية [٧] .
(٢) المؤمنون آية [٩٦] .
(٣) القصص آية [٥٤] .
(٤) القصص آية [٨٤] .
(٥) فصلت آية [٣٤] .
(٦) الأعراف آية [٩٥] .
(٧) الرعد آية [٦] .
(٨) النمل آية [٤٦] .
(٩) الأعراف آية [١٦٨] .
(١٠) هود آية [١١٤] .
(١١) الفرقان آية [٧٠] .

وأما مقابلة هذين اللفظين على صيغة الفعل فقد ورد ذلك في موقع واحد ، قوله تعالى : ﴿ **إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها** ﴾ [1] .

ومن المهم الآن بذل المحاولة لاستشراف ما عساه يكون من وراء ايثار التعبير بخصوص هذين اللفظين وما ورد عليه افراداً وجمعاً ، وتقديماً وتأخيراً ، ومناسبة، ذلك كله للمواقع والسياقات .

تقدم الحسنة على السيئة :

أما موقع آل عمران قوله تعالى : ﴿ **إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئًا ، إن الله بما يعملون محيط** ﴾ فوارد في سياق الكشف والتدليل لأهل الإيمان على مدى ما انطوت عليه قلوب بطانة السوء والنفاق من حقد إلى حد حسدوا ما نالهم من خير ومنفعة ، وشمتوا بما أصابهم من ضر وشدة .

وذكر لفظ الحسنة يشير إلى أن ما نال فريق الإيمان مما حُسِدُوا لأجله إنما هو من باب الخير والنعم مما أفاء الله تعالى بها عليهم ، فعلى حين أنهم مبتهجون بهذا الأمر الحسن ، فإن أولئك يقابلون هذا بالغيظ والضيق والحزن ، فهم لايودون لأهل الإيمان أن يكونوا على مثل تلك الحال من ظهور آثار نعم الله تعالى واحسانه عليهم .

كما أن ذكر المس مع الحسنة والإصابة مع السيئة يؤذن بأن مدار مساءتهم أدنى مراتب اصابة الحسنة ، وأما مناط فرحهم فتمام اصابة السيئة وإحاطتها من كل جانب ، وهذا يلتقي وحالهم غير السوية وحقيقة موقفهم من أهل الإيمان ، فإنهم بمجرد أن يروا شيئًا من آثار النعم بادية على المؤمنين تملكهم الغيظ والضيق المعبر عن نهاية الحقد على الإسلام وأهله ، كما أن شماتتهم تكون وقد

---

(١) الإسراء آية [٧] .

رأوا المؤمنين يختبرون بأنواع الابتلاء المرادة منه تعالى لحكم جليلة تغيب عن أمثال هؤلاء الذين طمست بصائرهم بالنفاق والحقد ، فهم يتخذونها مادة للفرح والشماتة .

تقديم الحسنة على السيئة هنا اشارة إلى ما عليه حقيقة أمرهم حيث كان القصد هنا بيان بالغ حقد هؤلاء واغتياظهم ونحو ذلك مما تضمره نفوسهم ، وكذا ما يبدوا من أفواههم من بغضاء وشماته عند نزول الضر ، غير أنه لما كان الأمر الكامل في قلوبهم حقداً وحسداً أكبر وأشد خطراً على ما هو صريح قوله تعالى : ﴿ **قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر ..** ﴾ [1] قدم ما به يكون ويقع ما يعبر عن معنى الحقد والحسد منهم .

وأما قوله تعالى : ﴿ **وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ، قل كل من عند الله .. فمال هؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثاً** ﴾ ، ففي معرض الرد على الفهم الفاسد والتنبيه على غباوة أمثال أولئك المنافقين واليهود ممن يترصدون للإسلام ورسوله ﷺ فإذا ما وقع بهم شيء من ضر نسبوه إليه ﷺ .

يذكر في أسباب النزول أنه كان قد بسط عليهم الرزق فلما قدم النبي ﷺ المدينة فدعاهم إلى الإيمان فكفروا أمسك عنهم بعض الإمساك فقالوا : ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا منذ قدم هذا الرجل وأصحابه وذلك قوله تعالى ﴿ **وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك** ﴾ ، أي وإن تصبهم نعمة ورخاء نسبوها إلى الله تعالى وإن تصبهم بلية من جدب وغلاء أضافوها إليك كما حكى عن أسلافهم بقوله تعالى ﴿ **وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه** ﴾ فأمر النبي ﷺ بأن يرد زعمهم الباطل ويرشدهم إلى الحق ويلقمهم الحجر ببيان اسناد الكل إليه تعالى على الإجمال إذ لايجترئون على معارضة أمر الله عز وجل،

---

(١) آل عمران آية [١١٨] .

حيث قيل : ﴿ **قل كلٌ من عند الله** ﴾ أي كل واحدة من النعمة والبلية من جهة الله خلقًا وإيجادًا من غير أن يكون لي مدخل في وقوع شيء منهما بوجه من الوجوه كما تزعمون ، بل وقوع الأولى منه تعالى بالذات تفضلاً ووقوع الثانية بواسطة ذنوب من ابتلى بها عقوبة .

ولأنهم بنوا موقفهم هذا على مغالطة وسوء فهم استتبع هذا التصريح بما يصفهم بالجهل والتعبير عن بالغ غباوتهم حتى لكأنهم قد صاروا إلى حال من عدم الفهم ، فهم بمعزل عن أن يعوا حقائق الأمور .

والتعبير بخصوص لفظ الحسنة هنا فوق كونه يعبر عن حسن الحال والبسط والسعة التي كان عليها القوم الجهلاء ، فإنها تشعر بما ينبغي أن يكون عليه حال من أحسن إليه ، ومراعاة حق المحسن والمتفضل ، والعمل على مقتضيات الشكر ، كما أن التعبير بالسيئة فضلاً عن كونها الأنسب في مقابلة صريح الحسنة قبلها أنها تشعر بمدى ما صار عليه حال هؤلاء من ضيق وتبرم وسوء حال عند وقوع الابتلاء ، ثم إن هذا التعبير أيضًا دال على أن ما ألم بهم إنما هو عقوبة استتبعتها أحوالهم السيئة .

ويؤيد هذا صريح التركيب في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيدًا** ﴾ فإن هذه الآية الكريمة بيان وتفصيل لمضمون الرد والجواب السابق : (قل كل من عند الله) أي : ما أصابك من نعم ووجوه الاحسان فمنه تعالى تفضلاً من غير استيجاب لها من قبلك ، وما أصابك من بلية من البلايا

ومع أن هذا متعلق بالكلام السابق لكن أفرد الخطاب هنا وسيق الكلام من جهته تعالى على ما يعرف بتلوين الخطاب لمزيد الاعتناء به ، والاهتمام برد مقالتهم الباطلة ، والرمز إلى أن مضمونه مبني على حكمة دقيقة يتولى بيانها علام

الغيوب على ما يذكر أبو السعود [1] ، وتوجيه الخطاب على صورة المفرد دون صيغة الجمع نظير قوله تعالى : ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم** ﴾ للمبالغة في التحقيق بقطع احتمال سببية معصية بعضهم لعقوبة الآخرين .

وفي بيان بالغ فضله على أهل الإيمان وبالغ عدله بين سائر خلقه يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لايظلمون** ﴾ [2] .

واضح أن المراد بالحسنة هنا الواحدة من فعل الطاعات المكلف بها أمراً أو اجتناب المكلف به نهيًا ، خلافًا لمن يرى ألمراد بالحسنة هنا لفظ التوحيد : لا إله إلا الله ، والسيئة : الشرك على ما نقل الفخر إذ لا مستند لذلك من سياق أو مأثور [3] .

ومجيء لفظي الحسنة والسيئة على صيغة المفرد لتحقيق الغرض المسوق له الكلام وهو الدلالة على نهاية فضله تعالى وعدله إذ الحسنة الواحدة لاتضيع ، بل ولاتقابل بمثلها ، بل تزاد بفضله إلى عشرة ، وهذا أقل ما وعد من الإضعاف ، فقد جاء الوعد بسبعين وسبعمائة وبغير حساب : ﴿ **والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم** ﴾ [4] ، ولاتعارض .

ولذلك يذكر الفخر وغيره أن المراد بذكر العشر هنا الدلالة على الكثرة لا خصوص العدد فقول القائل في مقام الوعد : لئن أسديت إليَّ معروفًا لأكافئنَّك بعشر أمثاله ، وفي الوعيد يقال : لئن كلمتني واحدة لأكلمنك عشراً ، ولايريد التحديد فكذا ههنا ، والدليل على أنه لايمكن حمله على التحديد .

روى أبو ذر أن النبي ﷺ قال : «إن الله تعالى قال الحسنة بعشر أو أزيد ،

---

(١) تفسير أبي السعود : جـ ٢ ، ص ٢٠٦ . (٢) الأنعام آية [١٦٠] .
(٣) التفسير الكبير : جـ ١٤ ، ص ١٠ . (٤) البقرة آية [٢٦١] .

والسيئة واحدة أو أعفو ، فالويل لمن غلب آحاده أعشاره»[1].

وتقديم المجيء بالحسنة ، لما كان من الغرض الدلالة على سبق الوعد ومزيد الفضل ، ولما في ذلك أيضًا من مزيد الترغيب على الإقبال على فعل ما يحقق ذلك الفضل.

كما أن اقتران كل من الحسنة والسيئة بباء المصاحبة مع الاسناد إلى فعل المجيء دال على أن سائر ما يقع من العباد سواء أكان من الأعمال المثاب عليها ، أو المعاقب بها يلازم صاحبه ، فلا ينفك عنه أبدًا ، حتى يأتي يوم القيامة ويأتي العبد ومعه ما عمل من حسن وسيء ، فلا شيء من هذا بمضيع أو متروك ، بل هو محصي ومكتوب كثر أو قل حتى ولو كان حسنة واحدة أو سيئة واحدة فهو مجازى على كلٍ وإن كان في جانب الحسن على مقتضى الفضل وفي جانب السيء بمقتضى العدل .

ثم إن إيراد الكلام هنا مصورًا بصورة الحديث مع المفـرد مفيد معنى المبالغة في تناول هذا الوعد والوعيد لكل أحد فردًا فردًا فلا يشذ ولايند عن هذا الحكم أحد ، وهذا دون ريب يتسق والغرض المراد . والله أعلم .

وأما قوله تعالى بيانًا لبغض أحوال ضلال بني اسرائيل وجهلهم : ﴿ **فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ، ولكن أكثرهم لايعلمون** ﴾[2] ، فلفظ الحسنة يعم هنا جنس النعم ، لا واحد الحسنات، كما هو الحال في الآية السابقة، كما أن المراد ليس عمل الطاعة والصالح أيضًا ، بل مثل السعة والخصب وغيرهما من الخيرات والنعم ، وذلك أن الغرض بيان عدم تذكر هؤلاء وتماديهم في الغي ، حيث كانوا مع الإنعام عليهم بفنون الخير والإحسان ، يتبجحون بالقول إن هذا لأجلهم وقد استحقوه ، وعندما يلم بهم نحو جدب وبلاء يتبرمون

---

(١) التفسير الكبير جـ٤ صـ١١ ، تفسير إلى السعود ـ٣ صـ٢٠٦.

(٢) الأعراف آية [١٣١] .

ويتشاءمون بموسى عليه السلام ، ويقولون : ما أصابتنا إلا بشئومهم ، وهذا كماترى شاهد على بالغ قساوة قلوبهم ، كما هو دليل على مدى جهلهم بحقائق الأمور ، إذ أن الشدائد والإبتلاءات ترقق القلوب ، وتلين العرائك أو الشأن فيها ذلك ، وما ينبغي أن يكون خاصة وقد شاهد هؤلاء القوم كثيراً من الآيات إلا أنهم كانوا بحيث لم يؤثر عنهم شيء من الاعتبار ، بل ما ازدادوا إلا عتواً وعناداً .

وتعريف الحسنة ومصاحبتها (إذا) الغالب استعمالها في معنى التحقيق يفيد كثرة وقوع ما هو من جنس الحسنة والنعمة عليهم ، كما أن تنكير (السيئة) وذكرها في سياق (إن) الغالب جريانها في معنى الشك للاشعار بندرة وقوعها [1].

وفي مقام تعداد خلال أهل الإيمان والجنة يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار** ﴾ [2] ، أي : يجازون الاساءة بالإحسان ، أو يتبعون الحسنة السيئة فتمحوها ، والمراد بالحسنة والسيئة هنا على ما يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما : الحسن من الكلام يدفعون به ما يرد عليهم من سيء غيرهم ، وعن الحسن المراد : إذا حرموا اعطوا ، وإذا ظلموا عفوا ، وإذا قطعوا وصلوا ، كما قيل المراد بالحسنة : التوبة ، وبالسيئة : الذنب [3] ، ومع امكان الحمل على أي من هذه المعاني فلا مانع من فهم المعنى على التعميم بما يشملهاجميعاً أو نحوه سواء كان ذلك من قبيل القول أو العمل .

وتقديم متعلق الحسنة على السيئة تنبيه على كمال العناية بأمر الحسنة التي هي من أوصاف أولئك المتحدث في شأنهم ممن تكون لهم بها عقبى الدار .

وأما قوله تعالى : ﴿ **أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ [4] ، فوارده في سياق من آمن

(١) تفسير أبي السعود : جـ ٣ ، ص ٢٦٤ .　　(٢) الرعد آية [٢٢] .

(٣) تفسير أبي السعود : جـ ٥ ، ص ١٧ ، القرطبي : جـ ١٣ ، ص ٢٩٨ .

(٤) القصص آية [٥٤] .

بالقرآن من أهل الكتاب يهوداً ، أو نفراً من أصحاب الإنجيل على ما هو مذكور في أسباب النزول ، والغرض بيان مضاعفة ثوابهم لإيمانهم بكتابهم ، ثم تصديقهم بالقرآن الكريم ، وصبرهم على أذى أقوامهم من المكابرين .

والحسنة في هذا السياق الطاعة ، والسيئة المعصية ، أي : أنهم يبادرون عند فرط شيء من الذنوب منهم بفعل الطاعة على الحد الوارد في الحديث الشريف عنه ﷺ : «وأتبع السيئة الحسنة تمحها» ويحتمل أن يكون المراد من الحسنة امتناعهم عن المعاصي لأن نفس الامتناع حسنة يدفع به ما لولاه لكان سيئة ، ويحتمل التوبة والإنابة والاستقرار عليها [1] .

ومادة الدرء المفيدة لمعنى الدفع وصياغتها على طريق المضارع ، واقتران الحسنة بحرف الباء يدل : على أن هؤلاء الموعودين بمضاعفة الثواب من قبله تعالى الشأن فيهم الإقبال على الحسنات ، فكلما جد منهم أو فرط ما هو من قبيل السيء عمدوا إلى دفعه مستعينين على ذلك بالطاعة والقربى التي من شأنها – ما دامت صادره عن اخلاص القلب وصدق القصد – أن تذهب بالسيء وتمحو أثره ، فلفظ الدرء وصياغته تعبير مصور كيف أن عمل الطاعات يلاحق المعصية والسيء ويتعقبوا ويدفعوا حتى يذهب به أصلاً فلا يبقى له أثراً .

وأما قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون** ﴾ فقد مر ما يقاربه من قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ...** ﴾ [2] ، غير أنه يلحظ هنا التعبير عن مزيد الفضل من الله تعالى على المجيء بالحسنة بلفظ (خير) الدال على هذا المعنى دون التصريح بذكر العدد على ما كان الأمر عليه هناك ، وإن كان قوله

---

(١) تفسير أبي السعود : جـ ٧ ، ص ١٨ ، التفسير الكبير : جـ ٢٤ ، ص ٢٦٣ .
(٢) القصص آية [٨٤] .

تعالى : ﴿ فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون ﴾ دال في الظاهر على أنهم لايزادون في جزاء السيئة ، وإذا صح ذلك في السيئات دل على أن المراد في الحسنات بما هو خير منها ما ذكرناه من مزيد الفضل والمضاعفة في الثواب ، كما يلحظ هنا اعادة ذكر السيئة موصولة بمن أتوا بها ، قال صاحب الكشاف : (تقدير الآية : ومن جاء بالسيئة فلا يجزون إلا ما كانوا يعملون ، لكنه كرر ذلك لأن في اسناد عمل السيئة إليهم مكرراً فضل تهجين لحالهم ، وزيادة تبغيض للسيئة إلى قلوب السامعين) [1] ، وهذا من فضل الله تعالى العظيم أنه لايجزي على السيئة إلا مثلها ويعد على الحسنة بالمضاعفة إلى حيث يشاء تعالي ويقدر يأتي ذلك بصريح ما عليه أمر المضاعفة كما يأتي بلفظ ينبيء ويعم .

وهنا قد يبدوا ويثور السؤال عما وراء إعادة ذكر فعل الحسن مع قوله سبحانه وتعالى ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ... ﴾ [2] ، على حين ذكر الاساءة هنا مرتين واكتفى بذكر الاحسان مرة واحدة ؟ وجواب الفخر لأن المقام هنا مقام الترغيب في الدار الآخرة ، فكانت المبالغة في الزجر عن المعصية والتهجين للقائمين عليها أنسب وأليق بهذا الباب ، لأن المبالغة في الزجر عن المعصية مبالغة في الدعوة إلى الآخرة وأما آية الإسراء فهي شرح لحال بني اسرائيل فكانت المبالغة في ذكر محاسنهم أولى ، ترغيباً في الحسن وبعثًا للقائمين عليه على مداومة التلبس به ، ولقصد مثل هذا من الحث والترغيب قدم الفعل الحسن والحسنة والجزاء عليهما [3] .

ويقول سبحانه وتعالى في سياق بيان محاسن الأحوال الجارية في المعاملة بين العباد أثر بيان محاسن الأعمال الجارية بين العبد وربه سبحانه وتعالى : ﴿ ولاتستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك

---

(١) الكشاف : جـ ٣ ، ص ١٩٣ .　　(٢) الاسراء آية [٧]

(٣) التفسير الكبير : جـ ٢٥ ، ص ٢١ ، ٢٢ .

وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ [1] ، والغرض ترغيب رسول الله ﷺ ومن وراته المسلمين في الصبر على أذى المشركين والمكابرين ومقابلة اساءتهم بالاحسان ، والمراد بالسيئة : الخصلة السيئة ، من جنس ما هو سيء من قول أو عمل ، والحسنة هنا كذلك : الخصلة الحسنة أي : ما كان من جنس ما هو حسن ومكلف به من فعل أو قول أو سلوك ، وذكر (لا) النافية مع كل من السيئة والحسنة لمضاعفة معنى عدم الاستواء بينهما بحال ، أي : لاتستوي السيئة ولا الحسنة في الأحكام والآثار ، وقوله تعالى : (ادفع بالتي هي أحسن) استئناف مبين لحسن عاقبة الحسنة أي : ادفع الحسنة حيث اعترضتك من بعض أعاديك بالتي هي أحسن مما يمكن دفعها به من الحسنات ، كالإحسان إلى من أساء ، فإنه أحسن من مجرد العفو ، وإخراج هذا التركيب مخرج الجواب عن سؤال من قال : كيف أصنع ؟ للمبالغة ولذلك وضع : (أحسن) موضع الحسنة ، كما أن التعبير بصيغة الدفع المأمور به يفيد معنى قوة مواجهة السيء بالحسن فلا يبني على السيء بمثله بل يذهب به ويطرح ليحل محله ليس الحسن فقط بل الأحسن ، ومن هنا يأتي ذلك بما هو الثمرة والنتيجة ، فما دامت إساءة المسيء تقابل بغير المتوقع من الرد بمثلها بالحسنة فقط ، وإنما بما هو أحسن فالمرجو إذن أن ينقلب العدو أو المسيء إلى صديق وخليل أي : (فإذا فعلت ذلك صار عدوك المشاق مثل الولي الشفيق) [2] .

وقريب من هذا موقع المؤمنون قوله تعالى : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون ﴾ [3] .

والغرض في هذا السياق تسليته ﷺ ، وأن لايلقي بالاً لما كان يواجهه من سفاهة القوم واساءة معاملتهم له واستهزائهم به ، وهذا هو المعبر عنه بالسيئة ، والدفع بالتي هي أحسن : الصفح عنها والصبر عليها ، والإحسان في مواجهتها ،

---

(١) فصلت آية [٣٤] .
(٢) تفسير أبي السعود : جـ ٨ ، ص ١٤ .
(٣) المؤمنون آية [٩٦] .

لكن لا بحيث يؤدي إلى وهن في الدين ، ويذكر بعض المفسرين أنها كلمة التوحيد ، والسيئة : الشرك ، كما قيل هو الأمر بالمعروف والسيئة المنكر [1] ، وعلى آية حال فالتعبير هنا أبلغ من نحو ادفع بالحسنة السيئة لما فيه من التنصيص على معنى التفضيل بما سبق إيضاح مغزاه ، وتقديم الجار والمجرور (بالتي هي أحسن) على المفعول : السيئة في الموضعين للاهتمام بأمر هذا الأحسن الذي واجه به السيء .

وقد وقع كل من لفظي الحسنة والسيئة على هيئة انتقابل وصفًا للشفاعة بقوله سبحانه وتعالى ﴿ من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها ، وكان الله على كل شيء مقيتًا ﴾ [2] .

وهذه الآية الكريمة مسوقة لبيان أن له ﷺ فيما أمر به من تحريض المؤمنين على الجهاد حظًا موفوراً ، فإن الشفاعة هي التوسط بالقول في وصول شخص إلى منفعة من المنافع الدنيوية أو الأخروية ، أو خلاصه من مضرة ما كذلك ، من الشفع كأن المشفوع له كان فرداً فجعله الشفيع شفعًا .

والحسنة منها : ما كانت في أمر مشروع روعي بها حق مسلم ابتغاء لوجه الله تعالى من غير أن يتضمن غرضًا من الأغراض الدنيوية ، وأي منفعة أجل مما قد حصل للمؤمنين بتحريضه ﷺ على الجهاد من المنافع الدنيوية والأخروية ، وأية مضرة أعظم مما تخلصوا منه بذلك من التثبط ، وبهذا يفهم وجه الصلة والمناسبة بين هذه الآية الكريمة وما قبلها مما كان سياقه الحث على الجهاد ، إذ الشفاعة مأخوذة من الشفع ، وهو أن يصير الإنسان نفسه شفعًا لصاحب الحاجة حتى يجتمع معه على المسألة فيها ، وإذن فتحريض الرسول ﷺ إياهم على الجهاد مندرج في هذا المعنى وذلك لأنه إذا كان عليه الصلاة والسلام يأمرهم بالغزو فقد جعل نفسه شفعًا لهم في تحصيل الأغراض المتعلقة بالجهاد ، وأيضًا

---

(1) تفسير أبي السعود : جـ ٦ ، ص : ١٤٩ .   (2) النساء آية [٨٥] .

فالتحريض على الشيء عبارة عن الأمر به لا على سبيل التهديد ولا على سبيل الجبر والإكراه ، بل على سبيل الرفق والتلطف ، وذلك يجري مجرى الشفاعة .

وقد أثر عن بعض مفسري السلف أن الشفاعة إلى الله تعالى تكون بالدعاء ، واحتج بما روى أبو الدرداء أن النبي ﷺ قال «من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له وقال الملك له ولك مثل ذلك» فهذا هو النصيب ، وأما الشفاعة السيئة فهي ما روي أن اليهود كانوا إذا دخلوا على الرسول ﷺ قالوا : السام عليكم ، والسام هو الموت ، فسمعت عائشة رضي الله عنها فقالت : عليكم السام واللعنة ، أتقولون هذا للرسول ، فقال ﷺ : قد علمت ما قالوا فقلت : وعليكم فنزلت هذه الآية .

كما أثر عن جمع من مفسري السلف كذلك أخذ الشفاعة الحسنة والشفاعة السيئة على وجه التعميم ، فالمراد : الشفاعة التي بين الناس بعضهم لبعض ، فما يجوز في الدين أن يشفع فيه فهو شفاعة حسنة ، وما لايجوز أن يشفع فيه فهو شفاعة سيئة ، ثم قال الحسن : من يشفع شفاعة حسنة كان له فيها أجر ، وإن لم يشفع ، لأن الله تعالى يقول : (من يشفع شفاعة) ولم يقل : ومن يشفع ، ويتأيد هذا بقوله عليه الصلاة والسلام «اشفعوا تؤجروا» .

ولكن لم كانت المغايرة في اللفظ حيث عبر مع الجزاء على الشفاعة الحسنة بلفظ النصيب ، ومع الشفاعة السيئة بلفظ الكفل ، ولا ريب في أن من وراء هذا فائدة ومغزى .

يذكر أهل اللغة : أن الكفل : هو الحظ ، ومنه قوله تعالى ﴿ يؤتكم كفلين من رحمته ﴾[1] أي : حظين وهو مأخوذ من قولهم : كفلت البعير واكتفلته إذا أدرت على سنامه كساء وركبت عليه ، وإنما قيل : كفلت البعير واكتفلته لأنه لم يستعمل كل الظهر ، وإنما استعمل نصيبًا من الظهر ، قالوا : ولايقال : هذا كفل

---

(١) الحديد آية [٢٨] .

فلان حتى تكون قد هيأت لغيره مثله ، وكذا القول في النصيب ، فإن أفردت فلا تقل له كفل ولا نصيب ، وعلى ذلك فالكفل اسم للنصيب الذي عليه يكون اعتماد الناس ، وإنما يقال كفل البعير لأنك حميت ظهر البعير بذلك الكساء عن الآفة ، وحمي الراكب بدنه بذلك الكساء عن التماس ظهر البعير فيتأذى به ، ويقال للضامن : كفيل ، وقال عليه الصلاة والسلام : «أنا وكافل اليتيم كهاتين» فثبت أن الكفل هو النصيب الذي عليه يعتمد الإنسان في تحصيل المصالح لنفسه ودفع المفاسد عن نفسه ، إذاوضح هذا نقول : قوله (ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها) أي : يحصل له منها نصيب يكون ذلك النصيب ذخيرة له في معاشه ومعاده ، والمقصود حصول ضده على جد (فبشرهم بعذاب أليم) والغرض منه التنبيه على أن الشفاعة المؤدية إلى سقوط الحق وقوة الباطل تكون عظيمة العقاب عند الله تعالى [1] .

تأخير الحسنة على السيئة :

وقد ورد ذلك في ثلاثة مواضع أحدها قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لايشعرون** ﴾ ، أي : أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والمحنة الرخاء والسعة ، وقد مر الحديث عن هذا في سياق الحديث عن السراء والضراء .

الموضع الثاني :

وهو الوارد في بيان حال من أحوال هؤلاء الذين ألفوا المكابره ، واستولى عليهم الغرور فتطلبوا ما لاينبغي لعاقل ، يقول سبحانه وتعالي : ﴿ **ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة** ﴾ [2] .

---

(١) التفسير الكبير : جـ ١٠ ، ص ٢١٢ ، ٢١٣ . (٢) الرعد آية [٦] .

والسيئة المستعجلون بها رسول الله ﷺ : النقمة وحلول العذاب المتوعدين به بدل النعمة عليهم والتفضل بالامهال .

والتعبير عن هذا بلفظ السيئة يرمز إلى أن حالهم : السيئة من الكفران واللجاج تسبب عقابهم بالعذاب ، حتى لكأنهم يستعينون بمزيد العناد وسيء الفعل والقول على ما يستعجلونه ، فالسيئة هنا مجاز عن العقاب أريد به التنبيه على أن أحوال أمثال هؤلاء السيئة هي التي تستجلب حلول النقمة لولا فضل الله تعالى ومنه على هذه الأمة بالإمهال ومد أمد الإنذار عسى منهم من يثوب أو يتوب ، ولذا نلحظ هنا حسن موقع الحسنة معبراً بها عن الإمهال إذ لفظها مشعر بمعنى الفضل منه تعالى والفضل لو أنهم فقهوه .

الموضع الثالث :

وقريب مما سبق وهو ما ورد في خطاب نبي الله صالح عليه السلام للفريق الكافر والمستكبر من قومه في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون** ﴾ (١)

قال عليه السلام للفريق الكافر منهم بعد ما شاهد منهم ما شاهد من نهاية العتو والعناد حتى بلغوا من المكابرة إلى أن قالوا له عليه السلام : ﴿ **يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾ (٢) .

فالمراد بالسيئة هنا أيضاً : العقوبة السيئة على حالهم السيء، كما أن الحسنة هنا التوبة حيث كانوا من فرط جهلهم وغوايتهم يقولون : إن وقع ما يتوعدنا به تبنا حينئذ ، وإلا فنحن على ما نحن عليه (٣) .

---

(١) النمل آية [٤٦] . (٢) الأعراف آية [٧٧] .
(٣) تفسير أبي السعود : جـ ٦ ، ص ٢٩٠ .

مقابلة الحسنات بالسيئات :

ورد الجمع بين لفظي الحسنات والسيئات على صيغة الجمع في ثلاث مواضع قدم فيها الحسنات في موضعين .

الموضع الأول :

وهو الوارد في شأن الحديث عن تفريق بني اسرائيل في الأرض ، وجعل كل فرقة منهم في قطر من أقطارها بحيث لاتكاد تخلو ناحية منها حتى لاتكون لهم شوكة ، وذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **وقطعناهم في الأرض أممًا منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ، وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون** ﴾ (١) .

والحسنات والسيئات المبتلين بهما : النعم والنقم ، وفي جمعهما دلالة على تعدد وتكاثر وجوه الإحسان والنعم على هؤلاء ، وكذا تنوع النقم وألوان العقوبات ، فإنهم من ذلك القبيل من الناس ممن لايجدي فيهم الابتلاء أول مرة ، فقد ألفوا اللجاج حتى صار لهم طبعًا وعادة ، فلتتعدد إذن وتتكاثر ضروب الابتلاءات من فنون النعم وألوان الشدائد عساهم بعد هذا يعودون إلى الحق ، كما أن سبق لفظ الحسنات في الذكر معه اشارة إلى معنى سبق وجوه الفضل والإحسان منه تعالى على خلقه وأنه تعالى لايبادرهم بالنقم فرحمته دائمًا أسبق .

الموضع الثاني :

وهو الوارد في سياق الكشف عن عظيم فضل الصلوات وكيف أنها تمحو ما فرط مما يغفر من الذنوب ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفًا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين** ﴾ (٢) الحسنات هنا على ما هو واضح : ضروب البر وأنواع القرب

---

(١) الأعراف آية [١٦٨] .

(٢) هود آية [١١٤] .

وجملة التكاليف ، ومنها الصلوات المصرح بالأمر بها ، بل هي من أجلها ، وعمدتها ، فهي تكفر الذنوب التي قلما يخلوا منها البشر ، لكن التعبير هنا بالذهاب يرمز إلى معنى محو ما وقع من هذه الذنوب إلى حيث لايبقى له أثر ، لا مجرد تغطيه وستره ، وهذا دون ريب دلالة على بالغ فضل الله وعظيم عفوه ، حيث لاتستتر هذه السيئات بما قد يتوقع أو يظن معه إمكان الكشف عنها والمحاسبة عليها وإنما الأمر أمر محو وذهاب ، حتى لكأن ما كان ووقع لم يكن ولم يقع أصلاً .

وفي جمع الحسنات مراعاة لمعنى الصلوات الخمس المأمور بها في هذا السياق ، لزوم وجوه الطاعات التي يمكن أن يتقرب بها العبد إلى ربه عديدة ومختلفة كذلك أن ما يقع من العبد ويفرط منه متعدد وكثير أيضًا .

تأخر الحسنات على السيئات :

وقد أخر لفظ الحسنات على السيئات في قوله تعالى بيانًا لبالغ فضله على من تاب وآمن وصلح عمله : ﴿ **إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحًا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورًا رحيمًا** ﴾ (١) ، والسيئات هنا المعاصي والكبائر التي كانوا قد ارتكبوها من نحو قتل النفس بغير حق والزنا ، ومن هنا ورد اللفظ جمعًا لتعدد تلك الذنوب التي اقترفوها .

والظاهر المتبادر من استبدال سيئات أمثال هؤلاء التائبين العاملين على مقتضيات التوبة بالحسنات : أن يثبت لهم سبحانه بدل كل عقاب على ما سلف منهم ثوابًا ، وهذا المعنى أقرب وأليق وأدل على مزيد فضل الله تعالى مما ذكر من أن المراد أن يمحو تعالى سوابق معاصيهم بالتوبة ، وثبت مكانها لواحق طاعتهم ، أو يبدل بملكة المعصية ودواعيها في النفس ملكة الطاعة بأن يزيل الأولى ويأتي بالثانية ، وقيل : بأن يوفقهم تعالى لأضداد ما سلف منهم (٢) .

---

(١) الفرقان آية [٧٠] .　　(٢) تفسير أبي السعود : جـ ٦ ، ص ٢٣٠ .

الحسنة والمصيبة :

وقد جاء الجمع بين كل من لفظ الحسنة والمصيبة في قوله سبحانه وتعالى : **﴿ إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون ﴾** (١) ، وقد كان من أهل النفاق والقاعدين عن الجهاد مع الرسول ﷺ ما يُنبيءُ عن بالغ الحسد والحقد والكبر والغرور والجهل كذلك ، ومن فرط حسدهم وحقدهم أن وقوع النصر والغلبة للإسلام ورسوله ﷺ يورثهم مساءة وبالغ اغتياظ ، وأما إن وقع بالمسلمين شدة وابتلاء فينصرفون وأمارات الابتهاج بادية عليهم حيث إنهم لم ينالهم مما وقع شيء ، فالحسنة هنا معبر بها أذن عما يكون من نحو ظفر وغنيمة ونصر ، كما أن المصيبة معبر بها عما قد يكون من نحو هزيمة وابتلاء مما يجهل أمثال هؤلاء دواعيه وأغراضه فيظنون أن قعودهم وتخلفهم عن الجهاد إنما كان على علم وبصر بعواقب الأمور .

ولعل ايثار التعبير عن هذا الذي يفرح به الجهلاء بلفظ المصيبة التنبيه على أن ما قد يقع على المسلمين والرسول ﷺ لحكم ومصالح تعود على الإسلام وأهله بالخير والصواب إذ أن تلك الابتلاءات من ورائها تصويب ولفت إلى أن في أحوال المسلمين ما ينبغي عليهم تداركه ، وذلك أن الإصابة كما ترد في معنى الشر ترد في معنى الخير كذلك بإعتبار المآل (في مفردات الراغب قال بعضهم الإصابة في الخير اعتبارًا بالصوب ، أي : بالمطر ، ، وفي الشر اعتبارًا بإصابة السهم ، وكلاهما يرجعان إلى أصل) (٢) ، وإن اختصت المصيبة بالنائبة في ظاهرة الإستعمال لكن لما كان من وراء الابتلاءات التي يجريها الله على أهل الإيمان لحكم وغايات فهي كانت في الحقيقة والمآل خير وإن كان بحكم ظاهر الحال شر وبلاء .

---

(١) التوبة آية [٥٠] .

(٢) المفردات : ص ٢٨٨ .

الجمع بين الخوف والطمع

ورد الجمع بين الخوف والطمع في مواضع في النظم الحكيم ، أحصيت منها أربع ، وقد تقدم لفظ الخوف على الطمع فيها جميعًا .

ففي قوله تعالى : ﴿ **ولاتفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفًا وطمعًا** ﴾ (1) .

وفي قوله تعالى : ﴿ **هو الذي يريكم البرق خوفًا وطمعًا وينشيء السحاب الثقال** ﴾ (2) .

وفي قوله تعالى : ﴿ **ومن آياته يريكم البرق خوفًا وطمعًا** ﴾ (3) .

وفي قوله تعالى : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفًا وطمعًا** ﴾ (4) .

فأما قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **ولاتفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفًا وطمعًا** ﴾ ، فالقصد تعليم الباعث على الدعاء - بعد أن علموا كيفيته - من قبل بقوله تعالى : وادعوا ربكم تضرعًا وخفية) وهذا الباعث تنطوي تحته أغراض الدعاء وأنواعه ، والظاهر أن الواو التي بين خوفًا وطمعًا لتقسيم الدعاء بأنه يكون على نوعين : فالخوف من غضبه تعالى وعقابه والطمع في رضاه وثوابه ، والدعاء لأجل الخوف نحو الدعاء بالمغفرة ، والدعاء لأجل الطمع نحو الدعاء بالتوفيق وبالرحمة ، هذا ما يراه صاحب التحرير (5) ، ويذكر الفخر أن المراد : أن الدعاء يشتمل على خوف وطمع في ذاته (6) وذلك بأن يكون الداعي متلبسًا ومستحضرًا للحالين معًا .

---

(1) الأعراف آية [٥٦] .
(2) الرعد آية [١٢] .
(3) الروم آية [٢٤] .
(4) السجدة آية [٢٣] .
(5) تفسير التحرير والتنوير : جـ ٨ ، ص ١٧٥ .
(6) التفسير الكبير : جـ ١٤ ، ص ١٣٣ .

وفي الأمر بالدعاء خوفًا وطمعًا دليل على أن من حظوظ المكلفين في أعمالهم مراعاة جانب الخوف من عقاب الله والطمع في ثوابه .

وقد شمل الخوف والطمع جميع ما تتعلق به أغراض المسلمين نحو ربهم في عاجلهم وآجلهم ، ليدعوا الله بأن ييسر لهم أسباب حصول ما يطمعون ، وأن يجنبهم أسباب حصول ما يخافون ، وهذا يقتضي توجه همتهم إلى اجتناب المنهيات لأجل خوفهم من العقاب ، وإلى امتثال المأمورات لأجل الطمع في الثواب ، فلا جرم أنه اقتضى الأمر بالإحسان ، وهو أن يعبدوا الله عبادة من هو حاضر بين يديه فيستحي من أن يعصيه [1] .

وتقديم خوفًا مراعاة لسبق حال الحذر والخشية من قصور أعمال أمثال هؤلاء المحسنين عن أن ينالوا بها الفضل والثواب ، إذ أن أمر الإحسان يجعلهم دائمًا ومهما اجتهدوا في أمور الطاعة والبر ووجوه الخير على خوف مما يبعثهم على المبالغة والمزيد في أمر الإحسان ، لكن لما كان الغرض بث الطمأنينة والرجاء في نفوسهم أردف الحق الخوف بالطمع ليكونوا مع شديد ما هم عليه من خوف على طمع ورجاء في فضل الله تعالى واحسانه .

وإذا كان سبحانه هو الآمر لهم بالدعاء خوفًا وهو الآمر بالدعاء طمعًا أيضًا فقد ضمن لهم تعالى بذلك جزيل العطاء برحمته القريبة من عباده المحسنين .

وعلى مقتضى هذا الأمر جرى فريق من عباد الله المخلصين فكان منهم الامتثال حتى صار هذا الأمر لديهم طبعًا ، فقد ألفُوهُ وأَحَبُّوه إلى حد أنهم يودون الدوام عليه حتى إن أبدانهم أصبحت تأبى النوم وتعافه ، يقول سبحانه وتعالى في ذلك : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفًا وطمعًا ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ [2] .

---

(1) التحرير والتنوير : جـ ٨ ، ص ١٧٥ .

(2) السجدة آية [١٦] .

فهذا الفريق ممن تنبوا جنوبهم عن الفراش ومواضع النوم رغبة في مزيد الطاعة ودوام العبادة ، الشأن فيهم مداومة الدعاء ، خوفًا من سخطه وعذابه وعدم قبول عبادتهم ، ورجاء في حصول رحمته على مقتضى وعده تعالى الحق بعظيم ثواب امثال هؤلاء المحسنين الذين جمعوا بين الإخلاص في الطاعة والعمل الصالح ، وأن ذلك حال منهم متجدده ومتتابعة ينبيء عن هذا صياغة الأفعال الدالة على محاسن أحوالهم من التجافي عن المضاجع ، والدعاء منهم ، والانفاق على طريق المضارع .

وأما قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **ولاتفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفًا وطمعًا** ﴾ .

وكذا قوله تعالى : ﴿ **ومن آياته يريكم البرق خوفًا وطمعًا** ﴾ (١) ، فالجمع فيما بين الخوف والطمع تصوير لحالين يكون عليهما الناس ويتعاقبان حين رؤية الإبراق من وقوع الخوف والاضطراب والقلق لدى رؤية البرق ، ثم وقوع الطمع والرجاء في نزول المطر الذي هو مصدر النماء .

وتقديم ذكر الخوف على (طمعًا) في الموضعين يتلاقى وما عليه حال هؤلاء الناس إذ الخوف من لحوق ما فيه ضرر أو هلاك إثر الإبراق يقع منهم أولاً فإن مضى زمان دون أن يلم بهم مكروه من نحو ما كانوا يحاذرون ، اطمئنت نفوسهم ، سكنت قلوبهم ، فإذا هم يستبشرون بحلول الخير ونزول المطر .

وقد ظهر الآن كيف أن الخوف قد ورد مقدمًا في الذكر على الطمع في المواضع الأربعة وذلك جريًا على الأصل من أن توقي ما فيه ضرر ومكروه مقدم في النفس على ما به نفع ومرغوب ، غير أنا نلحظ وقوع الجمع بين ما هو في معنى الخوف والطمع مع تقديم ما هو بمعنى الطمع ، وذلك قوله تعالى : ﴿ **ويدعوننا رغبًا ورهبًا** ﴾ فالرغب : السعة في الإرادة ، والطمع في حصول

---

(١) الروم آية [٢٤] .

الشيء ، كما أن الرهب : مخافة مع تحرز واضطراب [1] .

وإنما كان ذلك هنا لأن السياق مختلف ، والمُتَحَدَّثُ عنهم هنا مخالفون لما يجري فيه عرف عامة البشر ، إذ الآية الكريمة في سياق الحديث عن أحوال أنماط عالية من البشر ألفوا العبادة والإخلاص والجد في السعي ، فإن الضمير هنا يعود على المذكورين من الأنبياء عليهم السلام : ﴿ **أنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبًا ورهبًا وكانوا لنا خاشعين** ﴾ [2] أي : ما استحقوا الإجابة إلى طلباتهم إلا لمبادرتهم أبواب الخير ، ومسارعتهم في تحصيلها كما يفعل الراغبون في الأمور الجادون [3] أو راغبين في الثواب راجين للإجابة أو في الطاعة وخائفين العقاب من حيث كونهم بشرًا ، المهم أن في سبق الرهب هنا رمزًا وإشارة إلى أن حال الأنبياء عليهم السلام في الطاعة والدعاء والرجاء ليست كحال سائر البشر ، فمزيد قربهم من الله تعالى وبالغ خشوعهم يجعلهم على قرب من تحقيق الله تعالى ما يرجون ، ومع ذلك فإنهم لايجردون نفوسهم من معاني الخوف والرهبة والحذر أصلاً إذ هم عباد من عباد الله وإن امتازوا بالاصطفاء من قبله تعالى لإيصال مطلوباته إلى الخلق .

---

(1) المفردات للراغب : ص ١٩٨ ، ٢٠٤ . (2) الأنبياء آية [٩٠] .
(3) الكشاف : جـ ١ ، ص ٥٨٢ .

الخوف والأمن

(الخوف توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة ، كما أن الرجاء والطمع توقع محبوب عن أمارة مظنونة أو معلومة ، ويضاد الخوف : الأمن كما يقابله الطمع ، ويستعمل ذلك في الأمور الدنيوية والأخروية) .

(والخوف من الله لايراد به ما يخطر بالبال من الرعب ، كاستشعار الخوف من نحو الأسد ، بل إنما يراد به الكف عن المعاصي واختيار الطاعات ، ولذلك قيل لايعد خائفًا من لم يكن للذنوب تاركًا) .

وأما الأمن المقابل به الخوف فمعناه في الأصل (طمأنينة النفس وزوال الخوف ، والأمن والأمانة والأمان في الأصل مصادر ، ويجعل الأمان تارة اسمًا للحالة التي يكون عليها الإنسان في الأمن ، وتارة اسمًا لما يؤمن عليه الإنسان) (١) .

وقد استعمل الخوف مقابلاً للأمن في ثلاثة مواضع في النظم القرآني مع تقدم الخوف في موقعين على حين قدم الأمن في واحد منها .

ففي سورة النساء قوله تعالى : ﴿ **وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به** ﴾ .

وفي سورة النور قوله تعالى : ﴿ **وليبدلهم من بعد خوفهم أمنًا** ﴾ .

وفي سورة قريش قوله تعالى : ﴿ **فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف** ﴾ .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الله وإلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين**

---

(١) المفردات للراغب : ص ١٦١ (٢) المصدر السابق : ص ٢٥ .

يستنبطونه منهم ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً ﴾ (١) .

الأمن هنا : ما كان من نحو الإخبار بما فيه وعد بظفر وغلبة على الكفرة والعدو، والخوف : ما فيه خطر لتوقي أذى أو لحوق ضرر من عدو، فإن هذا النظم الحكيم مسوق لدفع ما عساه يتوهم في بعض المواد من شائبة الاختلاف بناء على عدم فهم المراد ببيان أن ذلك لعدم وقوفهم على معنى الكلام لا لتخلف مدلوله عنه ، وذلك أن ناساً من ضعفة المسلمين الذين لا خبرة لهم بالأحوال كانوا إذا أخبرهم الرسول ﷺ بما أوحي إليه من وعد بالظفر ، أو تحذير من الكفرة يذيعونه من غير فهم لمعناه ، ولا ضبط لفحواه على حسب ما كانوا يفهمونه ويحملونه عليه من المحامل ، وعلى تقدير الفهم قد يكون ذلك مشروطاً بأمور تفوت بالاذاعة فلا يظهر أثره المتوقع ، فيكون ذلك منشأ لتوهم الاختلاف فنعي عليهم ذلك .

ولو أنهم راجعوا رسول الله ﷺ مستكشفين لمعناه لما أن عنوان الرسالة من موجبات الرد والمراجعة إلى رأيه ﷺ وإلى كبار الصحابة البصراء بالأمور رضي الله تعالى عنهم لعلموا ما عليه حقيقة الأمر والمراد ، ولما وقعوا حينئذ في الاشتباه وتوهم الاختلاف .

وقيل إنهم كانوا إذا بلغهم خبر عن سرايا رسول الله ﷺ من أمن وسلامة أو خوف وخلل أذاعوا به فكانت اذاعتهم مفسدة ، كما ذكر أنهم كانوا يقفون من رسول الله ﷺ وأولي الأمر على أمن ووثوق بالظهور على بعض الأعداء ، أو على خوف فيذيعونه فتنتشر فيبلغ الأعداء فتعود اذاعتهم مفسدة (٢) ، وكل هذا تعبير عن أحوال متقاربة .

والتعبير هنا أذاعوا به أبلغ من اذاعوه ، حيث أنه يؤذن بيالغ جهدهم في اشاعته وتناقله بين الناس .

---

(١) النساء آية [٨٣] .

(٢) تفسير أبي السعود جـ ٢ ، ص ٢٠٨ .

وتعريف كل من الأمن والخوف في هذا السياق يدل على أن أمثال هؤلاء المنافقين كانوا إذا جاءهم الخبر بأمر من الأمور سواء كان ذلك الأمر من باب الأمن ، أو من باب الخوف عمدوا إلي افشائه .

ولعل تقديم لفظ الأمن هنا يرمز إلى أنه إذا كان الخبر في جانب الأمن زادوا فيه زيادات كثيرة ، فإذا لم يقع على ما قد أرجفوا به وأظهروا الأمر عليه أورث ذلك تثبيطًا للضعفاء في صدق الرسول عليه الصلاة السلام وما يخبر به عن الله تعالي (لأن المنافقين كانوا يروون تلك الارجافات عن الرسول ، وإن كان ذلك في جانب الخوف تشوش الأمر بسببه على ضعفاء المسلمين ، ووقعوا عنده في الحيرة والاضطراب ، فكانت تلك الارجافات سببًا للفتنة من هذا الوجه) [1] .

تقديم الخوف على الأمن :

سبق الاشارة إلي أن الخوف جاء مقابلاً للأمن ومتقدمًا عليه في موضعين .

فأما الأول فبيان لوعده تعالي الكريم لمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح بأن يكون لهم من ربهم التمكين في الأرض وأن يؤيدهم بالنصر والاعزاز ، يقول سبحانه وتعالى : **﴿ وعد الله الذين ءامنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنًا يعبدونني لايشركون بي شيئًا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾** [2] .

ومن مظاهر التمكين لهم في الأرض أن يبدلهم تعالى من بعد خوفهم من العدو أمنًا بأن ينصرهم عليهم فيقتلوهم ويأمنوا بذلك شرهم ، حيث كان أصحاب النبي ﷺ قبل الهجرة عشر سنين ، بل أكثر خائفين ، ثم هاجروا إلى المدينة وكانوا يصبحون في السلاح ويمسون فيه كذلك حتى قال رجل منهم : ما يأتي

---

(١) التفسير الكبير ، جـ ١٠ ، ص ٢٠٤ .   (٢) النور آية [٥٥] .

علينا يوم نأمن فيه فقال ﷺ : لاتصبرون إلا تيسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبيًا ليس معه حديدة فأنزل الله عز و جل هذه الآية وأنجز وعده ، وأظهرهم على جزيرة العرب وفتح لهم بلاد الشرق والغرب ، وصاروا لحال يخافهم كل من عاداهم ، وفي هذا من الدلالة على صحة النبوة للإخبار بالغيب على ما هو عليه قبل وقوعه ما لايخفى .

وقد ذكر أيضًا أن المراد : الخوف من العذاب والأمن منه في الآخرة [1] ، وإن كان الأنسب فيما أرى الأخذ على معنى التعميم ، فذلك الصق بحال الوعد الكريم ، وفي ذكر (خوفهم) معرفًا بضمير المتحدث في شأنهم ما ينبئ عن طول أمد الخوف وملازمته لهم زمانًا غير يسير وتمكنهم عليه حتى أضيف الخوف إليهم ، لقد صاروا معروفين به لملازمته إياهم ، كما أن في ذكر أمنًا على صيغة التنكير ما يفيد عموم المعنى لكل ما فيه أمن وطمأنينة وتسكين للنفس سواء كان ذلك فيما يتصل بالأمن مما يخاف منه في الدنيا ، أو كان ذلك متصلاً بما يخشى من عقاب الآخرة .

وأما الموضع الثاني :

فقد جاء في سياق الطلب من أهل قريش أن يفردوه تعالى وحده بالعبادة ، إذ هو رب البيت وحاميه ، يقول سبحانه وتعالى : **(فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع وأمنهم من خوف)** [2] ، وفي هذا النظم الكريم كشف لهم عن كونه تعالى وحده الجدير بأن يُعْبَد فقد وسع لهم في المعاش ولولا ذلك لكانوا في حال جوع وضنك عيش ، كما أنه سبحانه أمنهم من التعدي وتطاول الأيدي إلى أموالهم وأرواحهم ولولا ذلك لأخذهم الخوف من كل مكان ، وعلى اعتبار أمر التناسب بين هذه السورة الكريمة وسورة الفيل وشدة ارتباطهما فإن المعنى أنه سبحانه وتعالى إنما فعل ما فعل بأصحاب الفيل وقطع دابرهم

---

(١) تفسير أبي السعود . جـ ٦ ، ص ١٩١ .   (٢) قريش الآية [٤] .

وأذهب كيدهم وأفسد غرضهم من هدم البيت والتسلط على أهله فحصل بذلك لقريش الأمن من ذلك الخوف الذي كان ووقع ووكر في نفوسهم لدى علمهم بأمر هؤلاء المغيرين . أو بما كان يقع ويكون لو لم يكن منه تعالي الحماية وزوال الخطر عن بيته العتيق ومن يعيشون في كنفه ، وفي اسناد لفظ آمن إلى ما يعود عليه تعالى اشارة إلى أن ما كان ووقع من أمن إنما هو بقدرته تعالى وبفضله فهو الذي آمنهم ثم إن إيراد لفظ خوف على التنكير ما يشير إلى عظم هذا الخوف الذي كانوا عليه وشدة تمكنه فيهم ليظهر بهذا مدى فضل الله تعالى عليهم ، فليخلصوا له سبحانه إذن العبادة والتوجه ، إذ أن أمثال هذه المعبودات الآثمة من نحو ما كانوا يعبدون لايتهيء لها شيء من ذلك أبداً .

والله أعلم .



الجمع بين المغفرة أو ما في معناها والعذاب

يلحظ أنه حين يجمع بين لفظ المغفرة أو ما في معناه من نحو التوبه والرحمة وبين العذاب أو ما يفيد هذا المعنى بدلالة التركيب والسياق تقديم مادة المغفرة في أكثر مواقع النظم القرآني ، حتى إن صاحب البرهان قد عد ذلك من القواعد التي جرى عليها أساليب القرآن الكريم فحيث ذكر الرحمة والعذاب أن يبدأ بذكر الرحمة كقوله تعالي ﴿ **يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء** ﴾ [1].

وقوله تعالي ﴿ **إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب** ﴾ [2] وما ورد خلاف ذلك إنما كان مراعاةً لخصوص حال أو سياق .

ومن الميسور التعليل لهذا العرف القرآني ، إذ هو جار علي مقتضى أحوال الربوبية وأن لطفه وفضله ورحمته مقدم علي مؤاخذته تعالي خلقه بعدله وهذا يلتقى وما أخبر به ﷺ عن رب العزة ﴿ **إن رحمتي سبقت غضبي** ﴾ .

وأما ما خرج عن هذا وقدم فيه مادة العذاب ، أو ما يفيد معناه فإنما كان ذلك لحكمه بيانيه اقتضت ذلك ، ويمكن التماسها من خصوص السياقات والأغراض في كل موقع فقوله تعالي ﴿ **ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شئ قدير** ﴾ لأنه وردت في ذكر قطاع الطريق والمحاربين والسراق ، فكان المناسب تقديم ذكر العذاب ، ولهذا ختم آية السرقة بـ [عزيز حكيم] ، وختمها بالقدرة مبالغة في الترهيب ، لأن من توعده قادر علي إنفاذ الوعيد .

---

[١] سورة المائدة الآية ١٨

[٢] سورة فصلت الآية ٤٣ ، وينظر البرهان جـ ٤ ص ٦٣

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ لأنها واردة في سياق اثبات التفويض التام له تعالي من قبل عيسي عليه السلام لهؤلاء الأفاكين ممن كذبوا علي الله وادعوا علي نبيه ما يحال تصوره ، وقد سبق أن توعدوا بأشد العذاب إن هم لم يؤمنوا بعد ما يجابون على ما الحفوا في السؤال عنه ، فالكلام اذن عن قوم استوجبوا علي أنفسهم العذاب الذي سبق انذارهم به بعد تكذيبهم وكذبهم ، ولكن لما كان في الغرض معنى تفويض الأمر كله إليه تعالي وارجاع أمر عباده بتمامه إليه سبحانه ذكرت المغفرة لكن من بعد فسبق ذكر العذاب إذن مطابق لمقتضى حال هؤلاء المدعين والمنذرين به ، كما أن التعقيب بذكر المغفرة مطابق لمعنى التفويض وتمام القدرة والإرادة لله تعالي .

ومنه قولـه تعالى ﴿ يعـذب من يشـاء ويرحـم من يشـاء وإليـه تقبلون ﴾ [1] لأنها في سياق حكاية إنذار إبراهيم لقومه وتنبيههم إلى فساد حال عبادتهم وسوء مصيرهم إن هم لم يستجيبوا وينئوا بأنفسهم عن هذه العبادة الآثمة ، وهذا الأفك الذي يختلقونه .

يقول سبحانه وتعالي ﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذالكم خير لكم إن كنتم تعلمون إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون . وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين . أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير . قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شئ قدير ﴾ [2]

---

[1] سورة العنكبوت الآية ٢١ [2] العنكبوت الآيات من ١٦ إلى ٢٠

وبعد هذه الآيات الكريمة جاء قوله سبحانه ﴿ **يعذب من يشاء ويرحم من يشاء ..** ﴾ الآية .

وبعدها قوله تعالى ﴿ **وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير** ﴾ [1]فسياق الآية الكريمة السابق واللاحق على ما هو واضح سياق انذار ووعيد لهؤلاء الضالين عن العبادة الحقة والمنغمسين في ضلال العبادة الزور ، وأن أمثال هؤلاء سينالهم حتماً ذلك العذاب لأن قدرته تعالي قادرة على انجاز ما يتوعد به فإنه تعالي لا يعجزه عن انفاذ مراده شئ في الأرض ولا في السماء .

ومنها في آخر الأنعام قوله تعالى ﴿ **إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم** ﴾ [2]لأن سورة الأنعام كلها مناظرة للكفار ووعيدهم ، خصوصاً وفي آخرها قبل هذه الآيات بيسير ﴿ **إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شئ ..** ﴾ [3] الآية ، وهو تهديد ووعيد إلى قوله ﴿**قل أغير الله أبغي ربا ..**﴾ [4]الآية وهو تقريع للكفار وإفساد لدينهم إلى قوله ﴿ **وهو الذي جعلكم خلائف الأرض** ﴾ [5]. فكان المناسب تقديم ذكر العقاب ترهيباً للكفار ، وزجراً لهم من الكفر والتفرق ، وزجراً للخلائق عن الجور في الأحكام .

ونظير ذلك في أواخر الأعرف قوله تعالي ﴿ **إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم** ﴾ [6] لأنها في سياق ذكر معصية أصحاب السبت وتعذيبه إياهم فتقديم العذاب مناسب .

---

[1] سورة العنكبوت الآية ٢٢
[2] سورة الأنعام الآية ١٦٥
[3] سورة الأنعام الآية ١٦٥
[4] سورة الأنعام الآية ١٦٤
[5] سورة الأنعام الآية ١٦٥
[6] سورة الأعراف الآية ١٦٧

غير أنه يلحظ فرقاً بين الموقعين فقد ورد في موقع الأعراف اقتران العقاب باللام فقال تعالي [لسريع الحساب] دون آية الأنعام ، وذلك لأن اللام تفيد التوكيد ، فأفادت هنا تأكيد سرعة العقاب ، لأن العقاب المذكور هنا عقاب عاجل ، وهو عقاب بنى إسرائيل بالذل والنقمة بعد المسخ ، لأنه في سياق قوله ﴿ **وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب** ﴾ [1] فتأكيد السرعة محذوفة أفاد بيان التعجيل ، وهو مناسب بخلاف العقاب المذكور في سورة الأنعام ، فإنه أجل ، بدليل قوله ﴿ **ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تختلفون** ﴾ [2] فاكتفى فيه بتأكيد [إن] ولما اختصت آية الأعراف بزيادة العذاب عاجلاً اختص بزيادة التأكيد لفظاً بـ [إن][3]

النذارة والبشارة :

ورد الجمع بين مادة البشارة والنذارة ومتصرفاتهما في النظم الحكيم في مواضع ، وإن جاء أكثرها بتقديم البشارة كقوله سبحانه وتعالى ﴿ **أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير** ﴾ [4] وقوله سبحانه وتعالى ﴿ **وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً** ﴾ [5].

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ **ومارسلناك إلا مبشرا ونذيرا** ﴾ [6]

ونحو ذلك اية الأحزاب [7] واية سبأ [8] وكذلك اية فاطر [9] وفصلت [10] ، والفتح[11] والكهف[12] .

---

[1] سورة الأعراف الآية ١٦٧ .
(٢) سورة الأنعام الآية ١٦٤
(٣) ينظر البرهان في علوم القران جـ ٤ ص ٦٥.٦٦.
(٤) سورة المائدة الآية ١٩
(٥) سورة الإسراء الآية ١٠٥
(٦) سورة الفرقان الآية ٥٦
(٧) سورة الأحزاب الآية ٤٥
(٨) سورة سبأ الآية ٢٨ .
(٩) سورة فاطر الآية ٢٤
(١٠) سورة فصلت الآية ٤ .
(١١) سورة الفتح الآية ٨
(١٢) سورة الكهف الآية ٥٦

والذي يبدوا لي تعليلا وتوجيهاً لهذا أن معه مزيد حث على ترك باطل الدين وفاسد المعتقد وبعث وتحريك النفوس للإقبال على الدين الحق والمعتقد الصحيح .

كما يلحظ من وراء ذلك معنى التكريم لرسل الله تعالى عليهم السلام وذلك بإزالة النفرة عن النفوس المدعوة إلى هذا الدين المبلغ إليهم بوساطة هولاء الرسل وتقريب القلوب نحوهم ، فليس لله تعالي حاجة إلى عقاب خلقه أصلاً ، وماكانت الرسل إلا للدلالة على الطريق السوي الموصل لرضا الله تعالي ، ورحمته وفضله ، وبهذا يفهم وجه تقديم البشارة .

ومما يرشح هذه التوجيه أن سائر المواقع التي ورد فيها الجمع بين البشارة والنذارة واردة في سياق الحديث عن الغرض الأصيل من وراء ارسال الرسل وإن لحظ أن أكثر هذه المواضع واردة في شأن الرسول خاتم النبيين ﷺ .

وهذا لايمنع أن يلتمس ماوراء التقديم في كل موضع علي حدته ، فلاشك في أن هناك حكماً قد يكشف عنها ويدل عليها مراعاة خصوص السياق والغرض

فقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **إن تقولوا ماجاءنا من بشير ولانذير فقد جاءكم بشير ونذير** ﴾ الآية الكريمة في سياق الرد على أهل الكتاب فيما قد يتعللون به وقطع لمعاذيرهم بمضي زمان غير يسير على دينهم وكتابهم طمست به كثير من معالم شريعتهم فصاروا بذلك على غير علم بكثير من حقائقها ومتطلباتها، ومن أجل تغليق هذا الباب دونهم كان ارساله ﷺ بالدين الكاشف عما طمر، والمصحح لما فسد، فلاذريعة اذن ولاحجة

وتقديم البشارة علي النذارة هنا في قوله تعالى ﴿ **فقد جاءكم بشير ونذير** ﴾ يلتقى وما سبق أن أشرت إليه في معنى حث النفوس وحفزها علي الإيمان والاقبال علي مطلوباته ، فتقديم البشاره كى تحرك القلوب وتسعى بصاحبها إلى احراز ما يكون من وراء تحصيل مضمون هذه البشاره .

وأما تقديم [بشير] على [نذير] في قوله ﴿ **ما جاءنا من بشير ولا**

نذير ﴾ فلأجل مجيئة علي سبق التركيب بعده فإن قوله تعالى هذا وإن كان سابقاً في اللفظ لكن رتبته من حيث المعنى التأخير ، إذ مجئ الرسول ﷺ للبشاره والنذاره اسبق من قولهم هذا الذي يعتذرون به ، فحيث قدمت البشاره فيما يتصل به ﷺ ورسالته ناسب ذلك تقديم البشاره أيضاً في قولهم .

وينبغى الاشاره هنا إلا أنه مع مجئ لفظ بشير ونذير في الموقعين على التنكير إلا أن مفاد هذا التنكير ومغزاه مختلف تماماً ، فمغزى التنكير في قوله تعالى من بشير ولا نذير التعميم على هذا الوجه المؤكد والمستغرق لاقتران الحرف الجار [من] الدال علي معني الابتداء ، ثم توكيد معنى النفى بذكر [لا] المصاحبه .. نذير ويتراءى من وراء التعميم على هذا النحو المستغرق والمؤكد معنى التقليل ، وكأنهم يريدون أن يقولوا فيما يزعمونه تبريراً لفساد حالهم أن ذلك مرده إلى عدم وجدان من يدلنا أيما كان ، ولو جاءهم نذير أي نذير لستجبنا له ، ولكن ما حيلتنا وقد عدم كل نذير .

وأما التنكير في بشير ونذير في قوله تعالي ﴿ فقد جاءكم بشير ونذير ﴾ فالمعنى التعظيم ، أي : لا معذرة ولا تزرع ولا تعلل فقد ارسل اليكم بشير ونذير لكن ليس بشيراً أي بشير ولا نذيراً أى نذير ، بل هو بشير ونذير ذو شأن ومكانه وهذا يناسب تمام قطع المعذره وبطلان ما قد يحتجون به .

وأما ما ورد على خلاف ذلك وقدم معه مادة النذارة فالخصوص سياق ومغزي أيضاً ، ومنه قوله سبحانه وتعالي ﴿ إن إنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾ (١).

فمع أن ظاهر النسق لأفراد البشارة بالذكر « أو لسبق البشاره لختم الآية الكريمة بما يحمل علي هذا الظاهر في قوله تعالي ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ غير أن النظر في موقـع التركيب في عمـوم سياقـه ومساق الآيات قبله والبصر بحقيقـة

---

[١] سورة الأعراف الآية ١٨٨

الغرض كل ذلك دال علي أن تقديم النذارة هنا لكونها الأنسب بالمقام ، إذ أن هذا التركيب وارد في سياق الجواب والرد على أهل الكفر والكبر ممن اقترحوا علي الرسول ﷺ أن يعلمهم بما لا علم له به ، ولم يدع علمه ، ولا مدخل له في مطلوبات الدين من علم أوان الساعه ، فكان الجواب ببيان أن مهمته ﷺ لا تتجاوز مقتضيات الانذار والبشاره وحيازة ما يتعلق بهما من العلوم الدينية والدنيوية ، لا الوقوف علي الغيوب التى لا علاقة بينها وبين الأحكام والشرائع ، كما أنه قد كان منه ﷺ البلاغ والكشف عما يقتضيه الانذار في أمر الساعه من مجيئها لا محاله ، واقترابها ، وأما تعيين وقتها فليس مما يستدعيه الانذار ، بل هو مما يقدح فيه لأن ابهامه ادعى إلى الانزجار عن المعاصى .

وقوله تعالي [لقوم يؤمنون] إما متعلق بكل من النذاره والبشاره لأنهم ينتفعون بهما جميعاً فالانذار يكون وراء انزجارهم عن الكفر الذي كانوا عليه من قبل وترهيبهم بسوء مصير حالهم فيحدث ذلك فيهم الانصراف عن تلك الحال والاقبال علي الايمان الذي يكون لهم به الخير والثواب .

وعلي ذلك ففي ذكر البشارة هنا بعد ذكر النذاره ترغيب لأمثال هؤلاء القوم من احداث الإيمان وعدم الاصرار على العناد والكفر ، فالحديث اذن لا يزال مع هؤلاء المجادلين في أمر الساعه والالحاف في السؤال عنه ، بدلالة ايثار التعبير بصيغة المضارع [لقوم يؤمنون] دون التعبير بصيغة الاسم لقوم مؤمنين المنبئ عن الاستقرار والثبات على وصف الايمان المتصفين به علي خلاف المضارع والذي آثره النظم الكريم ، فإنه ينبئ عن معني حدوث الايمان وهذا يتفق وحال أمثال هؤلاء القوم ممن كان السياق في شأن الحديث معهم وعنهم على ما بدى لي

وفــي ارشاد العـقل السليم إمكان الحمل على أفراد نذير وبشير بالمؤمنين بناء على مراعاة حذف في الكلام [1] ولا أكاد أرى ضرورة تدعو إلى

---

[1] تفسير أبي السعود جـ ٣ ص ٣٠٢

نحو هذا ، بل هو على شئ من التكلف والله أعلم بحقيقة مراده .

ومن ذلك قوله تعالي ﴿ **الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً لينذر باساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً** ﴾ [1].

وتقديم الانذار على التبشير هنا لإظهار كمال العناية بزجر الكفار مما هم عليه مع مراعاة تقديم التخليه على التحلية .

وإما تكرير الانذار من بعد وافراده في قوله تعالي ﴿ **وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً** ﴾ [2] فلتعلقه بطوائف خاصه ممن عمهم الانذارالسابق تنبيهاً علي عظيم الجرم وشناعة المعتقد ، أى : وينذر من بين سائر الكفره هؤلاء المتفوهين بمثل هذا الافك بادعاء أن لله تعالي ولدا .

وعدم اجراء الموصول في فعل الانذار هنا علي الموصوف كما جري عليه النظم الكريم مع فعل البشارة ﴿ **ويبشر المؤمنين الذين** ﴾ رمز إلى أن ما في حيز الصله كافياً في الدلالة علي استحقاقهم هذا الانذار فهو كفر ، بل هو أشده كما أن ايثار التعبير بصيغة المضى هنا دلالة علي تحقق هذا الكفر منهم بصدور هذ القول الآثم عنهم ، علي خلاف التعبير بما في صلة المبشرين ، فالتعبير معهم وارد بطريق المضارع اشاره إلي تجدد الأعمال الصالحة وصدورها عنهم حيناً بعد حين كما هو مقتضى الايمان الحق .

ثم إن في طرح المفعول الأول لفعل الإنذار الوارد أولاً معه اشعار بأن الغرض الأصيل المساق له الكلام التنبيه على المنذر به وهو البأس الشديد ، وأما ذكر المنذرين مع فعل الانذار الثاني فالغرض التنصيص على أن أمثال هؤلاء من الكفره علي وجه الخصوص ينالهم أشد العذاب ، إذ هم دون شك داخلون أولاً

---

[1] الكهف الآيتان ١ ، ٢   [2] الكهف الآية ٤

في عموم الانذار الأول فينالهم بهذا ما ينال عموم الآخره ، ولكن لما كان كفرهم أشد كان في الغرض التنصيص عليهم خاصه افادة لمعنى توكيد أمر لحوق المنذر به وهو البأس الشديد بهم .

وجعل المفعول المحذوف فيما سلف عباره عن هذه الطائفة المنقوله على الله كذباً يؤدي إلى خروج سائر طوائف الكفر الأخرى عن هذا الانذار والوعيد .

كما أن تعميم الانذار الأول للمؤمنين أيضاً يحمله على معنى مجرد الإخبار بالخبر الضار من غير اعتبار طول المنذر به على المنذر يفضي إلى خلو النظم الكريم عن الدلالة على طول البأس الشديد على من عدا هذه الفرقه [١].

وأما قوله سبحانه وتعالي **﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلي رجل منهم أن انذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾** فتقديم الأمر بالانذار على الأمر بالتبشير معه لأن التركيب وارد في سياق بيان حال ابتعاد الكفره والمعاندين الوحي على رجل منهم استبعاد إحاله .

وعلى هذا فلفظ الناس المتعلق به الأمر بالانذار يعم البشر الذين يمكن إنذارهم فهو عموماً عرفياً ، وحيث عطف على أمر الانذار الأمر بالتبشير لخصوص الذين آمنوا فهم من ذلك خصوص الناس المتعلق بهم الانذار بغير المؤمنين .

وحذف المنذر به للتهويل ، ولأنه يعلم حاله من مقابلته بقوله **﴿ وبشرالذين آمنوا أن لهم قدم صدق ﴾** .

وأما قوله تعالى **﴿ ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير ﴾** [٢]

---

[١] ينظر أرشاد العقل السليم جـ ٥ ص ٢٠٣ ، ٣٠٣

[٢] سورة هود الآية ٢

فالجمع بين النذاره ولبشارة لمقابلة ما تضمنته الجملة الأولى من طلب ترك عبادة غير الله بطريق النهى وطلب عبادة الله بطريق الاستثناء ، فالنذارة ترجع إلى الجزء الأول ، والبشارة ترجع إلى الجزء الثاني [1] وبهذا يفهم وجه تقديم النذاره على البشاره .

وبعد فقد رأينا كيف جرى التعبير عن ما فيه معنى الضر والنفع بألفاظ أخرى وقد كان من وراء كل تعبير مغزاه الملائم لخصوص سياقه ، وهنا ينبغى الاشاره إلى أن ما أورده في هذ الفصل لا يجاوز كونه نماذج لما جرى عليه العرف القرآني في هذا الباب والذي ورد في الكتاب العزيز كثيراً وعلي انحاء مختلفه لم يكن المقام هنا لإستقصائها ، إذ الوقوف عليها جميعاً علي حد الاستقراء مما يحتاج إلى مزيد جهد أرجو أن أتوفر عليه يوماً أو يتوفر عليه غيري .

والحمد لله تعالي أولاً وآخراً على ما وفق إليه ويسر والصلاة والسلام على رسول الله الخاتم وعلى آله وصحبه والتابعين والعلماء العاملين .

---

[1] تفسير التحوير والتنوير جـ ١١ ص ٣١٦.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١ – الاتقان في علوم القرآن – للسيوطي .ط : دار الفكر – بيروت (بدون تاريخ)

٢ – الأسماء الحسنى – عبد السلام محمد بدوي . ط : دار المعارف ١٩٩٠.

٣ – بدائع الفوائد لابن القيم الجوزية . ط : دار الفكر للطباعة [بدون تاريخ]

٤ – البرهان في علوم القرآن – للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ط : دار المعرفة – بيروت – لبنان [بدون تاريخ] .

٥ – تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير ومفاتيح الغيب : ط : دار الفكر – بيروت ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م

٦ – تفسير ابى السعود – المسمى ارشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعـود محمـد بن محمـد العمـادي : مطبعة عبد الرحمن محمد [بدون تاريخ]

٧ – تفسير جزء عم – للشيخ محمد عبده . ط المطبعة الأميرية – الطبعة الأولى ١٣٢٢ هـ

٨ – تفسير التحرير والتنوير – للطاهر بن عاشور . ط : دارالتونسية للنشر [بدون تاريخ] .

٩ – الجامع لأحكام القرآن – القرطبي . ط دار الشام للتراث ١٣٨٤ هـ – ١٩٦٥م

١٠– درة التنزيل وغرة التأويل – للخطيب الاسكافي . ط . دار الآفاق الجديدة – بيروت – الطبعة الرابعة ١٤٠١ هـ – ١٩٨١م

١١– روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني – للسيوطي ط : دار الفكر – بيروت ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م

١٢– أسباب النزول – للسيوطي – تحقيق وتطبيق الأستاذ / قرني أبو عميرة [بدون تاريخ] .

١٣- أسرار التكرار في القرآن – للكرماني ، دراسة وتحقيق . عبد القادر أحمد عطا – دار الاعتصام – الطبعة الثالثة ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨م
١٤- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيوب الأقاويل في وجوه التأويل ط – طبعة أفتاب نهران [بدون تاريخ] .
١٥- لسان العرب – لابن منظور . ط . دار المعارف .
١٦- معترك الاقران في اعجاز القرآن – للسيوطي . ط دار الفكر العربي [بدون تاريخ] .
١٧- المفردات في غريب القرآن – لابن القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الاصفهاني . ط مطبعة مصطفى الحلبي [بدون تاريخ] .
١٨- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . ط . مطابع الشعب ١٣٧٨ هـ ،



دليل الكتاب

رقم الصفحة

الفصل الثاني

مسكم الضر فإليه تجأرون » ايثار التعبير بالنعمة في مقابلة الضر مع تقديم النعمة وذكر المساس مع الضر ومصاحبة الباء المضافة إلى ضمير المخاطبين في جانب النعمة ٥٦

* الموضع الثاني : قوله تعالى : **« ولئن اذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني انه لفرح فخور »** – المراد بالنعماء هنا والتعبير عن ملابسة النعماء بالذوق

* الموضع الثالث : قوله تعالى : **« واذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم اذا خوله نعمة منه نسى ماكان يدعو إليه من قبل وجعل لله انداداً ليضل عن سبيله »** المراد بالإنسان المتحدث في شأنه في هذا السياق وكذا المراد بالضر والنعمة وتقديم الضر ٥٧

مقابلة الضراء بالسراء :-

* الموضع الأول : قوله تعالى **« الذين ينفقون في السراء والضراء »** – المراد بالسراء والضراء . وماوراء تقديم السراء في هذا السياق وكيف انه انسب بخصوص حال المتحدث في شأنهم ٥٩

* الموضع الثاني : قوله تعالى « .. **وقالوا قد مس اباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغته وهم لايشعرون »** – تقديم الضراء على السراء في هذا السياق على خلاف ماكان عليه الحال فيما سبق لكونه الأنسب هنا كذلك بخصوص حال المتحدث عنهم .

مقابلة النفع بما في معنى الضر

* الموضع الأول والثاني: قوله تعالى « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس وأثمهما اكبر من نفعهما » ماوراء مقابله النفع بخصوص الاثم وماياحظ من جمع منافع الخمر والميسر ووصف الاثم المقابل لتلك المنافع بالكبر . ثم اعادة وصف الاثم المترتب عليهما مخبراً عنه بوصف اكبر مع ايراد النفع المضاف اليهما مفرداً. ٦٠

التعبير عن كل من النفع والضر بألفاظ أخرى :-

* التعبير عن كل من النفع والضر بالفاظ اخرى كالتعبير عنها بالخير والشر والخوف والطمع والخوف والامن والرغب والرهب والحسنه والسيئه والمغفره والعذاب والنذارة والبشارة

الخير والشر :

* ورود لفظ الخير مقابلا للفظ الشر ومتقدما عليه في بعض المواضع
* كقوله تعالى « **ولايحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم** »
* وقوله تعالى « **لايسئم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط** » – الاكثر ورود لفظ الشر متقدماً والتعليل لذلك نظير قوله تعالى « ... **لاتحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم** » التعبير عما [illegible] اهل الإيمان في شأن تلك الحادثة الآثمة بلفظ شر .
* وقوله تعالى: « **إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا** » اسناد كل من الخير والشر إلى ضمير المس في هذا السياق
* وقوله تعالى :« **وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم** » تقديم لفظ الخير هنا .

٦٥

الجمع بين الحسنة والسيئة :-

المراد بكل من الحسنة والسيئة، تقدم الحسنة على السيئة في اكثر مواقع النظم القرآني

* كقوله تعالى « **ان تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحو بها وإن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئا ان الله**

٧٠	**بما يعملون محيط** » ماوراء تخصيص لفظ الحسنة في هذا السياق مع ذكر لفظ المس في جانب السيئة والرمز المفاد من تقديم الحسنة .
٧٣	* قوله تعالى « **وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك** » – مايشعر به التعبير بلفظ الحسنة في هذا السياق، وماوراء افراد الخطاب هنا .
٧٥	* قوله تعالى « **من جاء بالحسنة فله عشر امثالها ومن جاء بالسيئة فلايجزى إلا مثلها** » . المراد بالحسنة هنا مع مجئ كل من السيئة والحسنه على لفظ المفرد وحقيقه المراد بالعدد في مثل هذا السياق على مايذكره امثال الفخر وماهو جار في كلام العرب ، ايثار تقديم الحسنة ، وايراد الكلام هنا مصوراً في صورة الحديث مع مفرده
٧٦	* وقوله تعالى « **فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه الا إنما طائرهم عند الله ولكن اكثرهم لايعلمون** » تعريف لفظ الحسنة ومصاحبتها « اذا »
	* قوله تعالى « **والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم واقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة** .. » المراد بالحسنة والسيئة هنا وتقديم متعلق الحسنة على السيئة . مع ايثار التعبير بمادة الدرء وصياغتها على المضارع
٧٧	* قوله تعالى « **أولئك يؤتون اجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة** » المراد بالحسنة والسيئة في هذا السياق والمراد بمن يجري في شأنه هذا الكلام.
	* قوله تعالى « **من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ماكانوا يعملون** » محاولة في التماس التعليل لذكر لفظ السيئة هنا مرتين على حين ذكر لفظ الاحسان في قوله تعالى « ان احسنتم احسنتم لأنفسكم وإن اسأتم فلها » مع ذكر

رقم الإيداع ١٠٠٥١ / ١٩٩١

I.S.B.N 977-5101-83-6